مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة

العدد السابع
1990 م

- واقع البحث العلمي ومشكلاته
- قصة دخول الإسلام إلى رواندا
- صورة المسيحية في دراسات غربية
- مفاهيم أساسية في فكر مالك بن نبي
- التراث الإسلامي والاستشراق

الشِّعر والشّعراء في القرآن الكريم

بقلم الأستاذ: الطيب علي الشريف
جامعة السابع من أبريل - الزاوية - الجماهيرية العظمى

مقدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ وآله، ومن سار على هديه. وبعد:

فمما يبعث على الاهتمام بالبحث في موضوع الشاعر، والشعر، في القرآن الكريم، هو محاولة معرفة الأسباب التي من أجلها تعرض القرآن لذكرهما في أكثر من موقف، وقد سبق لبعض الباحثين تناول هذا الموضوع بشكل عام، ورأيت أن أجمع شتاته، مقتصراً على الآيات التي ورد فيها ذكر الشاعر، والشعر، محاولاً الوقوف على الأسباب الداعية لذلك، في كل آية على حدة.

هذا، وقد سار البحث في الخطوات التالية:

أولاً: التمهيد، ويشمل:

1 ـ التعريف بالشاعر.

2 ـ التعريف بالشعر.
3 ـ أهميتها عند العرب.
4 ـ القرآن الكريم والشعر.

ثالثاً: الخاتمة، ونتائج البحث:

مع مراعاة الملاحظات التالية:

1 ـ قدم مبحث ذكر الشاعر، لتناسب الآيات التي ورد فيها، بكونها جميعاً مكية، وأنه لم يتبين فيها موقف محدد للقرآن من الشعر.

2 ـ جاء بعده مباشرة مبحث ذكر الشعر، لأن موقف القرآن ـ في رأيي ـ يبدو أكثر وضوحاً من السابق، مما يشير إلى أن هذه الآية التي ورد فيها ذكر الشعر، تصور مرحلة متأخرة إلى حد ما.

3 ـ آخر مبحث ذكر الشعراء، الأسباب أشرنا إليها في ص: 17 من هذا البحث عند الانتهاء من مبحث الشعراء.

4 ـ اعتمد البحث كثيراً على كتب التفسير، لأهميتها في هذا الموضوع.

5 ـ سيعثر القارىء حتماً، على بعض الهفوات، في اللغة، والأسلوب، والنواحي الفنية للبحث، وكل ما آمله هو تنبيهي إليها، مع الشكر، والعرفان بالجميل مسبقاً.

6 ـ استخدم البحث المختصرات التالية:

(ص) . صلى الله عليه وسلم.
(ر) . رضي الله عنه.
لا. ط . بدون طبعة.
لا. ت . بدون تاريخ.

والله الموفق ،،،،،،،،

تمهيد

1 ـ ماهية الشاعر:

الشاعر بطبعه يحاول جاهداً أن يكون لنفسه شخصية متميزة عمن سواه، ومن هنا كانت الثورة على كل ما هو مألوف في الحياة من أبرز سماته قديماً وحديثاً، ولعل محاولات التجديد المستمرة في اللغة والصور والأخيلة، ونقد الأوضاع الاجتماعية والسياسية التي تطرق لافتة النظر، مثيرة للدهشة، على مر العصور، وفي مختلف الحضارات، خير دليل على هذه الثورة المتأججة داخل النفس الشاعرة.

ولما يثيره فينا الشاعر من أحاسيس غريبة تجاه الحياة والواقع المعاش بوسائله المتعددة، ولعجزنا عن مجاراته في هذا الميدان على الرغم من أنه لا يفترق عنا إلا بهذه الحاسة الغريبة التي أتاحت له فهم العالم والتعبير عنه على نحو يثير إعجابنا، نجد أنه قد احتل مكانة رفيعة في نفوسنا، وأثار بهذه المكانة رغبة النقاد في الوقوف على ماهيته، منذ القدم، فاختلفت مواقفهم منه، كل يحاول تعريفه بما يراه من أبرز سماته.

ففي الحضارة اليونانية القديمة كان لفظ الشاعر يعني الصانع والمبدع، وكان أفلاطون، وأرسطو، يعتبران كل مبدع عملاً فنياً شاعراً، سواء أكان هذا الإبداع كلامياً، أم غيره، ثم تحدد هذا المعنى فأصبح يطلق لفظ الشاعر على من يبدع عملاً فنياً عن طريق الكلام الموزون[1].

وفي الحضارة الرومانية كانت مرتبة الشاعر في مرتبة الكاهن الذي يعلم الغيب بواسطة الشياطين، أو الآلهة، وقد بقي هذا سائداً حتى عصر النهضة الحديثة[2].

هذا ويرى النقاد الأوروبيون أن الشاعر: إنسان يدرك حقائق العالم إدراكاً

---

(1) أنظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، كامل المهندس، (ط: 2، مكتبة لبنان 1984 م، ص 206.

(2) السابق.

فطناً، ويعبر عما يدركه بالكلام البليغ الذي يفوق مستوى الكلام العادي[3].

ولا يختلف المعنى كثيراً عند العرب، فقد ورد في معاجم اللغة[4] أن الشاعر هو قائل الشعر، وهو مشتق من مادة شعر شعراً، أي قال الشعر، وسمي بذلك لشدة فطنته، ودقة معرفته، ورقة شعوره. ورهافة أحاسيسه، فهو يستطيع أن يعبر عن أحاسيسه أكثر من سواه، ويصور آلام الآخرين، وأفراحهم بطرق تفوق تصويرنا لها، هذا إلى جانب اعتباره: خالقاً ومُبْدِعاً يدرك عالم الحياة، والجماد من حوله إدراكاً لطيفاً، ويصوغه صياغة فنية معبرة بما فيها من إيحاءات، وتصويرات عن طريق اللفظ، والأسلوب، والصورة البيانية، وغيرها من الوسائل اللغوية، إذ من الخصائص اللازمة للشاعر، تمكنه من اللغة، مفردات وأساليب، وحسن تصرفه فيها على نحو يبعث على الإعجاب، والدهشة، ولعل هذا ما حدا بقدامى العرب، وغيرهم إلى اعتبار الشاعر كاهناً يوحى إليه، أو ممن تسنده قوة خارقة كالجن والشياطين، وهو أيضاً ما دعا المحدثين إلى الإيمان بقيمته كأداة فعالة من أدوات تحريك المجتمع وتوجيهه.

وفي المعنى نفسه يقول صاحب العمدة: (فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى، ولا اختراعه، أو استطراف لفظ وابتداعه... أو صرف معنى إلى وجه من وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل[5].

ومما سبق يتضح لنا أنه وإن لم يتفق النقاد على تعريف واحد للشاعر، إلا أن معناه ومفهومه يكاد يكون واحداً عند مختلف الأمم، فهو إنسان أوتي نصيباً وافراً من الذكاء، والموهبة الشعرية مع رقة المشاعر، ورهافة الأحاسيس، وقدرة

(3) السابق.

(4) أنظر: أساس البلاغة، محمود بن عمر الزمخشري، (لا. ط، دار الشعب، القاهرة 1960) ص 494، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، (لا. ط، القاهرة، لا. ت) 1:486، المعجم الأدبي، جبور عبد النور، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م، ص 145 معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: 206 و207.

(5) العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، أبو علي، الحسن بن رشيق القيرواني، (ط: 4، دار الجيل، بيروت 1972) 1: 116.

فائقة على صياغة تجاربه وتجارب غيره في أسلوب جميل أخّاذ يفوق جميع الأساليب المألوفة.

2 ـ ماهية الشعر:

إن تحديد الشعر بحدود فاصلة، وحصره بتعريف منطقي، أمر يبدو في غاية الصعوبة بدليل عدم اتفاق النقاد والأدباء ـ العرب، والغرب على حد سواء ـ على تعريف جامع مانع للشعر، وفي رأيي ان ذلك راجع إلى طبيعة الشعر نفسه، إذ هو نبع تجارب ومشاعر، وأحاسيس ذاتية صرفة، لا تخضع لقوانين مقننة، وكذلك ما يثيره فينا من نوازع، ومشاعر، لا يمكن إخضاعها لمثل هذه المعايير، لذلك كان تحديده بحدود فاصلة أمراً صعباً، وليس ذلك مما يعيب الشعر، أو النقاد على أية حال، بل هو في حقيقته دلالة على سمو هذا النوع الأدبي، ومكانته الرفيعة ـ أخلاقياً، وسياسياً.

ولو تتبعنا آراء بعض كبار النقاد في مواقفهم من الشعر، لظهر واضحاً عدم اتفاقهم على تعريف محدد لهذا الفن المميز، فهذا قدامة بن جعفر ـ مثلاً ـ يرى أن عناصر الشعر أربعة، هي: اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية[6]، ونجد ذلك نفسه عند ابن رشيق، إضافة إلى جعله القصد إلى الشعر من الأمور الأساسية، حتى يخرج منه أشياء نزل فيها القرآن الكريم، وتحدث بها الرسول ﷺ[7] ولا يختلف عنهما العسكري، الذي يؤكد على الوزن بجعله عماد الشعر[8]، فهؤلاء وأمثالهم، ممن اعتمد الوزن، واللفظ، والمعنى، والقافية، عناصر أساسية للشعر ـ يهملون عند تحديدهم لمفهومه ـ بعض المزايا الفنية التي لا يقوم الشعر بدونها، مثل: العاطفة والخيال والموهبة الشعرية.

نجد عند بعض آخر من النقاد تحديداً أكثر شمولاً لمفهوم الشعر، وإن كان

---

(6) أنظر: نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق: محمد خفاجي، ط: 1 (مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1979 م) ص: 64-71.

(7) أنظر: العمدة 1: 119.

(8) أنظر: كتاب الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تحقيق: علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل، ط: 2، مطبعة الحلبي، مصر 1971 م. ص: 143.

معظمهم يعتمد على الوزن كأساس ضروري لتمييز الشعر من بقية أنواع الكلام الأخرى، مثل ما نجده عند القاضي الجرجاني الذي يرى أن الشعر علم من علوم العرب، يشترك في صنعه الطبع، والرواية، والذكاء، والدربة، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن، المبرز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان[9].

فهو يعتمد على خواص أخرى للشعر غير التي سبق الحديث عنها، أهمها الموهبة الشعرية، التي عبر عنها بالطبع، وهو في هذا يتفق مع ابن طباطبا، الذي يجعل الطبع والذوق من أخص خصائص الشعر، فمن صح طبعه، وذوقه، أصاب الغاية من الشعر، دون الحاجة إلى الاستعانة بالعروض، ومن اضطرب عليه الذوق، لم يستفد من تقويم الشعر بالعروض، كما يجعل الوزن أساساً يقوم عليه الشعر، وبدونه يمجه السمع، وينبو عن الذوق[10].

ويذهب الآمدي إلى أن الشعر هو حسن التأتي، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له، وهو يرى أن الكلام لا يكتسي البهاء، والرونق، إلا بهذه الأوصاف[11].

ولا يختلف رأي ابن خلدون عمن سبقه، فهو يجعل الوزن، والبلاغة، أساساً للشعر، إذ يعرفه بأنه: «الكلام المبني على الاستعارات، والأوصاف، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن، والروي، الجاري على أساليب العرب المخصوصة[12].

---

(9) أنظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي البجاوي، ط: 4، مطبعة الحلبي، مصر، 1966م، ص: 15.

(10) أنظر: عيار الشعر، محمد بن أحمد بن طباطبا، تحقيق، طه الحاجري، ومحمد سلام لا. ط، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1956م. ص 3-5، والعمدة، 1: 134.

(11) أنظر: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط: 2، دار المعارف، مصر، 1972م، 1: 423.

(12) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، (دار الشعب، القاهرة لا. ت)، 534-535.

وعلى هذا النحو من عدم الاتفاق على تعريف محدد للشعر عند العرب، نجد نقاد الغرب كذلك مختلفين في تحديد مفهومه، فمنهم من يجعل ميزته الأولى الوزن، والابتكار[13]، وبعضهم يقف عند حد الوصف الظاهري، فيرى: أنه الكلام البسيط المؤثر[14]، ويميزه غيرهم بقوة التعبير والاعتماد على العاطفة[15]، وكثير منهم يعرفه تعريفات غامضة، مثل قول أحدهم: «إنه خير كلمات صنعت في خير نظام»[16]، وقول آخر: «هو ذلك الكلام الخالد»[17]، وقول غيرهم بأنه عاطفة يتذكر بها الشعراء وقت الهدوء...[18] الخ.

وهكذا يبدو لنا أن الشعر فن غريب النزعة، عزيز المنحى، كما وصفه ابن خلدون[19]، يعتمد على ركائز متعددة منها: الصورة البيانية، من التشبيهات، والاستعارات، والحلية البديعية واللغة المعبرة، والجرس الموسيقي الدائم لتموجات العواطف، والإيقاع الصوتي المعبر عنه بالوزن، المميز لحالات النفس في مختلف تقلباتها من حزن، وفرح وثورة... الخ، وبالجملة فالشعر يعتمد على كل الوسائل الممكنة، ليوحي بأحاسيس، وخواطر، ويجسد انفعالات، ومشاعر، لا يمكن تركيزها في أفكار محددة للتعبير عنها كما في الحديث المألوف، هو إدراك للحياة بكل مظاهرها الإيجابية والسلبية، إدراكاً لا يوحي به النثر العادي[20].

وعلى الرغم من هذا الاختلاف الذي نراه بين النقاد والأدباء حول تحديد ماهية الشعر، فإنهم في الحقيقة يكادون يتفقون على خواص أساسية، لا بد من وجودها في الشعر، حتى يسمى شعراً، يمكن إجمالها في النقاط التالية:

---

(13) أنظر: أصول النقد الأدبي، أحمد الشايب، ط: 7، مكتبة النهضة المصرية، 1964م. ص 296.
(14) السابق.
(15) السابق.
(16) انظر موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس/ ط 4، دار القلم/ بيروت، 1972م، ص 20.
(17) السابق.
(18) السابق.
(19) مقدمة ابن خلدون، 535.
(20) المعجم الأدبي 145.

1 ـ انتقاء الألفاظ المعبرة المناسبة للموقف.

2 ـ الترتيب الموسيقي الخاص، المعبر عنه بالوزن، وهذه الميزة مما يتفق عليها علماء العرب، والغرب، على حد سواء، إذ الوزن يعد من أعظم أركان الشعر، وأولاه به خصوصية، كما يقول ابن رشيق[21]، فهو ظاهرة طبيعية في الشعر، لا يمكن الاستغناء عنها، وجدت لتقرير العواطف التي تتزاحم بها النفس الشاعرة، وهذه العواطف قوة وجدانية لا يمكن إطفاؤها، تتمثل في مظاهر جسمية تبدو على الإنسان الغاضب الثائر، أو الفرح المبتهج، أو العاشق الولهان.... إلخ وما هذه المظاهر الجسمية الخارجية، إلا استجابة لتلك العواطف المتأججة داخلياً، فإذا ما حاول صاحبها ترجمتها إلى لغة مسموعة، أو مقروءة، كان من الطبيعي أن تكون لغة ذات تقاسيم متزنة تصور تلك العواطف الداخلية في أشكالها المختلفة، ونظمها غير المألوفة[22]، وما اجتماع النقاد على هذه الخاصية إلا دليل على أنها عماد الشعر الأول، وركنه الأهم، وأنها ليست مجرد حلية يتزين بها الشعر، وقد تفارقه.

3 ـ لغة الشعر تختلف عن لغة النثر العادي بما يميزها من التنغيم الموسيقي، وكثرة المجاز، وبما تعتمد عليه من الإيحاء، والشفافية، ولعل هذا ما دعا بعض النقاد إلى القول: بأن الشعر لا يعبر عن معان مباينة لمعاني النثر، ولا يميزه عنه إلا التعديل في أداة التعبير ـ اللغة ـ فيصبح أبلغ أثراً من النثر[23].

4 ـ الرؤيا الشعرية: وهي النظرة إلى الحياة نظرة تعمق، وتأمل نتيجة أحاسيس خاصة، لا يمكن إدراكها، ولا التعبير عنها، لمجرد المنطق، وإقامة الحجة، بل لا بد للتعبير عنها من لغة خاصة تسمى اللغة الشعرية.

5 ـ الموهبة الشعرية: وهي ملكة ذاتية تنمو داخل الشخصية المتميزة عاطفياً، فتمكنها من فهم العالم، وتأويل أسراره، ثم التعبير عنه لغوياً، وهذه

---

(21) أنظر: العمدة، 1 : 134.

(22) أصول النقد الأدبي، 294.

(23) أنظر المعجم الأدبي 148، موسيقى الشعر 19.

الموهبة ولدت مع ميلاد الشعر وعرفت بمعرفته منذ القدم. وإن تميزها بالتفوق أهاب بكثير من المفكرين قديماً إلى القول: بأنها من مصدر غير إنساني، هي من شيطان، كما ذهب قدماء العرب، أو من إلّه كما اعتقد قدماء الإغريق، وهذا أيضاً ما جعل المحدثين يعتبرون الشعر مصدر تغيير، وتطوير لأحوال المجتمع، ويجمعون على أنه نتيجة إلهام ينزل على صاحبه، أو هو قوة خارقة متفلتة من النواميس الثابتة، المتعارف عليها[24].

6 ـ مما يميز الشعر عن النثر، العاطفة. إذ هي غايته الأولى، ومن عناصره المهمة، فالشعر إذا لم يعالج معنى عاطفياً فقد وظيفته، وإن كان متزناً في لغته، ولقد نبه إلى ذلك ابن رشيق في قوله: (والفلسفة، وجد الأخبار، باب آخر غير الشعر، وإنما الشعر ما أطرب، وهز النفوس، وحرك الطباع، فهذا هو باب الشعر)[25].

7 ـ ويزيد الشعر العربي قيداً آخر، وهو: القافية، بل أن بعض النقاد يلح عليها. مثل: ابن رشيق، الذي يجعلها شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر، إذ يقول: (ان الشعر لا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية)[26].

وبهذا يمكننا القول: بأن النقاد لم يختلفوا في الحقيقة حول مفهوم الشعر، وإنما تعددت محاولاتهم للكشف عن ماهيته، كل حسب معطياته الثقافية، وما يثيره فيه الشعر من ردود فعل ذاتية. ومن مجموع هذه المحاولات استطاعوا أن يبينوا لنا أهم مزاياه الفنية.

ومن خلال هذه الرحلة القصيرة مع النقاد في بحثهم عن ماهية الشاعر، والشعر تظهر مكانتهما وهيبتهما في نفوس البشر منذ القدم، وأنهما فوق الوصف، والخضوع لقواعد ثابتة.

---

(24) أنظر: المعجم الأدبي 149.

(25) العمدة 1: 128، وانظر: أصول النقد الأدبي، 300-301.

(26) العمدة، 1: 151، وانظر: معجم المصطلحات العربية 210.

3 ـ منزلة الشاعر والشعر عند العرب:

من الثابت أن للشاعر منزلة كبيرة عند العرب، فالقبائل العربية كانت تمجد شعراءها، وتنزلهم المنزلة الرفيعة إلى درجة أنه إذا نبغ شاعر في القبيلة، تذبح الذبائح، وتصنع الأطعمة ويجتمع النساء للغناء، والضرب بالدفوف، كما يصنعن في الأعراس، ويتباشر الرجال، والولدان، لأنه يعدونه حامياً لأعراضهم، وذاباً عن أحسابهم، ومخلداً لمآثرهم، ورافعاً لذكرهم، وتأتي القبائل الأخرى للتهنئة بهذا الحدث الكبير في حياة القبيلة، وكانوا لا يفعلون ذلك إلا في المناسبات المعتبرة عندهم[27].

وإذا كانت هذه مكانة الشاعر، فإن شعره يعد ديوان العرب، وسجل حياتهم، المتضمن للجانب الإيجابي والسلبي منها، وله أهميته الخاصة عندهم، فقد كانوا يحترمونه، ويجلونه لمنافعه الكبيرة لهم، وبهذا القدر نفسه كانوا يخشونه، ويرهبونه، خوفاً على أنفسهم مما قد يلحقه بهم من المذلة والهوان. ولا غرابة في ذلك، فقد رفع كثيراً من الناس ما قيل فيهم من الشعر، بعد الضعة، والهوان، حتى افتخروا بما كانوا يعيرون به، كما هو الحال في قصة الأعشى مع المحلّق الذي كان فقيراً، معدماً، خامل الذكر، حتى مدحه الأعشى بأبيات من الشعر رفعت من شأنه بين العرب، وأخرجته من حياة الفقر إلى حياة الغنى[28]، وقصة بني جعفر بن قريع، الذين كانوا يأنفون من لقب: (أنف الناقة)، الذي ألحقه بهم أبوهم جعفر عندما كان صبياً، ويعتبرونه سبة لهم بين العرب، حتى أنهم كانوا إذا سئلوا عن نسبهم، يتجاوزون أباهم، وينتسبون إلى جدهم قريع (معروفة) لم يمحه عنهم إلا بيت الحطيئة:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الـذنبا

فصاروا يتطاولون بهذا اللقب بعد ذلك[29].

---

(27) العمدة، 1: 65.

(28) السابق، 1: 48-49.

(29) السابق، 1: 50، وانظر العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه، (شرح وضبط أحمد أمين وآخرين، لا. ط، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1946 م، 5: 328-329.

كذلك وضع الشعر أناساً من أهل الكرم والشرف، كأبيات لبيد بن ربيعة، التي قعدت بالربيع بن زياد عن منزلته الرفيعة التي كانت له عند الملك النعمان إذ كان من ندمائه المقربين[30] وبيت جرير المشهور:

فغض الطرف أنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

الذي تسبب في إقصاء بني نمير عن المنزلة الرفيعة التي كانت لهم بين العرب، فلم يرفعوا رأساً بعدها إلا نكس بهذا البيت[31].

وغيرها من القصص الكثيرة[32]، التي تدل على مكانة الشعر الرفيعة عندهم.

4 ـ القرآن الكريم والشعر:

من المعروف أن العرب بلغوا درجة عالية في الفصاحة والبلاغة، وأن القرآن الكريم نزل بلغتهم، وبنفس طرقهم، ومناهجهم، في التعبير، وتصريف القول، وتنويع الأساليب، غير أنه فاقهم فصاحة، وبلاغة، فحينما استمعوا إليه يتلى، بهرتهم هذه الفصاحة التي لم يعهدوها، وتلك البلاغة التي عقلت ألسنتهم، فتحيروا، وذهبت بهم الظنون كل مذهب، لأنهم أحسوا بأنه أسمى، وأرقى من آدابهم، ولا قدرة لهم على محاكاته، خاصة بعد أن تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله، وأعجزهم عن الرد على هذا التحدي، فوصفوه بأوصاف شتى، مما يقع في تصورهم أنها أرقى، وأمثل من بلاغة القرآن، حتى يشككوا في إعجازه لهم، مثل: السحر، والكهانة، والشعر، وغيرها من الأوصاف التي تفصح عن مدى حيرتهم أمام أسلوب القرآن الذي أعجزهم، مع تسليمهم بأنه لم يخرج عما ألفوه من ضروب القول، وفنون الأساليب، وقناعة بعضهم الداخلية أن القرآن فوق

---

(30) العمدة، 1: 51.

(31) السابق، 1: 50.

(32) انظر على سبيل المثال: العمدة الجزء الأول، باب من رفعه الشعر، ومن وضعه، 40-52 وباب من قضى له الشعر ومن قضى عليه، 53-56، والعقد الفريد، الجزء الخامس، باب من رفعه المدح، ووضعه الهجاء، 328-330.

كل هذه التصورات، وأنه لا مجال لمجاراته، ولا لإيجاد شبه له، ويشهد على هذا ما روي من أن عتبة بن ربيعة، وهو من بلغاء العرب، أرسله قومه ليجادل النبي ﷺ، فلما سمعه يتلو قوله تعالى: ﴿**حم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون**﴾ أدهشه ما يسمع، فظل منصتاً حتى بلغ الرسول قوله تعالى: ﴿**فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون**﴾[33]، ولي مدبراً، مشدوهاً، وكان ذلك الموقف سبباً في إسلام بعض قومه[34].

ولأهمية الشعر في حياة العرب، وتأثيره الكبير عليهم سلباً، وإيجاباً، ولخطورة بعض مضامينه على المجتمع، ومنافاتها لمبادىء الإسلام، ولإثبات الإعجاز القرآني، ونَفْيِ جذور الشك عنه، تعرض القرآن الكريم للشاعر والشعر في أكثر من موضع، وذلك في معرض الرد على العرب الذين يتصورون أن الشعر في منزلة لا يصل إليها إلا الخاصة ممن أوتوا حظاً وفيراً من الموهبة والذكاء، وطول التجربة، أو في مجال نفي زعمهم أن القرآن ليس المعجز وإنما هو كلام شاعر، أو في حيز إرساء المفاهيم الإسلامية الجديدة التي تتنافى وبعض أغراض الشعر المتعارف عليها.

وفي ضوء مفهوم الشاعر والشعر، وأهميتهما عند العرب، وعلاقتهما بالقرآن الكريم وإعجازه والرسول ﷺ وبلاغته، ننطلق مع القرآن الكريم لنرى موقفه منها، ومن المشركين الذين درجوا على وصف النبي ﷺ بالشاعر والقرآن بالشعر.

أولاً: مواضع ذكر الشاعر في القرآن الكريم:

ذكر القرآن الكريم لفظ الشاعر في أربع سور هي: الأنبياء[35]،

---

(33) الآيات: (1، 3، 13، 14) من سورة فصلت.

(34) انظر: السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري، تحقيق: إبراهيم الأبياري وآخرين، ط: 2، مطبعة الحلبي مصر، 1955 م)، 1: 293 -294.

(35) الآية: 5.

الصافات [36]، الطور[37] الحاقة[38] وفيما يلي نوردها بمناسباتها، وآراء العلماء فيها ومناقشتها بالتفصيل:

1 ـ ففي سورة الأنبياء ذكر الشاعر في قوله تعالى: ﴿**بل افتراه بل هو شاعر**﴾ آية 5 والضمير في «افتراه» يعود إلى القرآن، وضمير «هو» عائد إلى النبي ﷺ، وحتى يتضح المعنى فنفهم مناسبة ذكر الشاعر هنا نثبت الآيات السابقة لهذه الآية لارتباطها بالمعنى نفسه، وهي قوله تعالى: ﴿**اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون، ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون، لاهية قلوبهم، وأسرّوا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم، أفتأتون السحر وأنتم تبصرون، قال ربي يعلم القول في السماء والأرض، وهو السميع العليم، بل قالوا أضغاث أحلام، بل افتراه، بل هو شاعر، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون**﴾[39].

فلفظ الشاعر إنما ذكر في هذا الموضع لبيان مقدار تذبذبهم أمام فصاحة القرآن، فغرضهم أن ينفوا إعجاز القرآن، فقلبوا الأمر فيما بينهم، فثبت لهم أن النبي ﷺ بشر، وقدروا أن ادعاء كونه بشراً، مانع من كونه رسولاً، ثم تبين لهم خطأ هذا التقدير، وكبر عليهم الاذعان للإعجاز القرآني، لخروج فصاحته عن مقدور البشر، لأن ذلك يؤدي بهم إلى الاعتراف بنبوة محمد ﷺ وهو ما ينكرونه بشدة، وحتى لا يقعوا في المحذور وصفوه بالساحر، لأن فصاحته ـ في زعمهم ـ خارجة عن فصاحة قوى البشر، وقالوا: إن ادعيناه أنه في نهاية الركاكة، قلنا: إنه أضغاث أحلام، وإن وصفناه بالتوسط بين الركاكة والفصاحة، قلنا: إنه افتراء، وإن سلمنا بأنه كلام فصيح، قلنا: إنه من جنس فصاحة الشعراء، وعلى جميع هذه التقديرات لا يثبت كونه معجزاً[40].

---

(36) الآية: 36.

(37) الآية: 30.

(38) الآية: 41.

(39) الآيات: 1-5 من سورة الأنبياء.

(40) انظر: تفسير الفخر الرازي، محمد الرازي فخر الدين، ط: 1، دار الفكر، بيروت، 1981 م. 22: 143.

لهذا نجدهم في حيرة، وارتباك لا يستقرون على رأي، وهدفهم الأول هو نفي الإعجاز عن القرآن، لذا كان آخر ما وصفوا به النبي ﷺ أنه شاعر، وما أتى به هو شعر، يخيل إلى السامع معاني لا حقيقة لها، بعد ترددهم بين أوصاف أربعة، كما هو واضح من الآيات، وهذا الاضطراب شأن العاجز، ودليل إقامة الحجة عليه[41].

هذا وتشير الآيات إلى صفات أخرى، أرادوا بها وصف النبي ﷺ ليحطوا من شأنه بين العرب، تقع تحت مضمون وصفهم له بالشاعر، مثل: الزيف والكذب، وغيرها، مما يعرفونه عن الشعراء من هفوات، ونواقص، بدليل وصفهم له بالساحر، والمفتري، المفهومة ضمناً من مجمل الأوصاف المذكورة، وقد أشار البعض إلى أن الشاعر في القرآن بمعنى الكاذب[42].

فلفظ الشاعر هنا إنما ورد في معرض بيان حيرتهم، ودهشتهم، لفصاحة القرآن، وبلاغته وليس فيه مساس، أو ازدراء بمكانة الشاعر، والشعر.

2 ـ وفي سورة (الصافات) نجد ذكراً للشاعر، في قوله تعالى: **﴿ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون﴾** فقد وصفوا الرسول ﷺ بالشاعر ـ في هذه الآية ـ استخفافاً به، وإنكاراً لنبوته، بعد استكبارهم عن قوله: **﴿لا إله إلا الله﴾** المذكورة في الآية السابقة **﴿وإذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون﴾**، فإقرارهم بالوحدانية لله تعالى يعني: استغناءهم عن آلهتهم التي يقدسونها، لذا كانت دعوتهم إلى التوحيد مثار استغرابهم في الآية المذكورة، فجاء مساق كلامهم بالتأكيد الشديد على محافظتهم على آلهتهم، وأنهم لن يتركوها لشاعر مجنون، فواضح أن وصف النبي ﷺ بالشاعر، ثم وصف الشاعر بالمجنون، تأكيد في الاستخفاف بمكانته ﷺ والتنفير من دعوته، ثم محاولة التماس المبررات لأنفسهم في التقليل من شأنه، والرفع من شأن آلهتهم.

---

(41) انظر: الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، لا. ط، دار الشام للتراث، بيروت، لا. ت)، 11: 270، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمود الألوسي (ط: 4 دار احياء التراث العربي بيروت، 1985 م، 17: 9.

(42) روح المعاني 17: 10.

ولكن ما معنى وصفهم الشاعر بالمجنون؟

قيل: تخليط، وهذيان، لأن الشعر يقتضي عقلاً كاملاً به تنظم المعاني الغريبة، وتصاغ في قوالب الألفاظ البديعة[43].

وهذا الرأي لا يروق للشيخ محمود الألوسي، فيرد عليه، بقوله: (وفيه نظر، وكم رأينا شعراء ناقصي العقول، ومنهم من يزعم أنه لا يحسن شعره حتى يشرب المسكر)[44].

وأرى أن لفظ (المجنون) هنا ليس على حقيقته، إذ من المسلم به أن المجنون لا يعتمد عليه في شيء البتة، لعدم معقولية تصرفاته، وثباتها، وإنما إطلاق لفظ (المجنون)، مجازاً حسب تصورهم، فليس من المعقول في حسبانهم أن تهان آلهتهم، وما دامت قد أهينت فاعتبروا هذا الفعل لا يصدر إلا عن مجنون، فوصفوه بذلك، وهذا ليس بمستغرب، فكثيراً ما يحدث أن يوصف العقلاء بالمجانين، لخروجهم في أعمالهم، وتصرفاتهم، عن المعتاد عند الناس، فليس في وصفهم الشاعر بالمجنون تخليط، ولا هذيان، بل هم واعون لما يقولون، وعلى هذا فالأمر واضح، لا يحتاج إلى تعليل، إذ لا يختلف اثنان على ضرورة وجود قدر كاف من الوعي، والعقل، لنظم الشعر، ومهما كان الشاعر ناقص العقل، أو يزعم أنه لا يحسن شعره حتى يشرب المسكر، فلا بد له من قدر من الوعي يعينه على التخيل، وتسلسل الأفكار، وحبك الأسلوب، ولا يعقل أن يصدر الشعر عن مجنون، أو فاقد الوعي تماماً.

ولفظ الشاعر في هذا الموضع، أيضاً، إنما ورد في معرض إنكارهم لنبوته ﷺ، والاستخفاف به، وليس فيه ما يدل على موقف محدد للقرآن من الشعر، وقد رد الله قولهم، وكذب زعمهم، مبيناً أن ما جاء به محمد ﷺ توحيد ثابت، وليس بشعر، وجنون، في قوله، في الآية الخاتمة لهذا المعنى: ﴿بل جاء

---

(43) السابق، 23: 84.

(44) السابق.

بالحق وصدق المرسلين﴾[45].

3 ـ الموضع الثالث الذي ورد فيه ذكر الشاعر، هو قوله تعالى، من سورة الطور: ﴿**أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون**﴾[46]، فقد ورد ذكر الشاعر، في هذه الآية، حكاية لمقالة صدرت عنهم، أوردها الضحاك، ومجاهد، مفادها: أن كبراء قريش اجتمعوا في دار الندوة، وكثرت آراؤهم في محمد ﷺ، فقال بنو عبد الدار: هو شاعر، فتربصوا به ريب المنون، فسيهلك كما هلك زهير، والنابغة، والأعشى، ثم افترقوا على هذه المقالة، فنزلت الآية حاكية لمقالتهم[47].

ولما تكرر هذا القول منهم، عبر عنه بصيغة المضارع (يقولون) للدلالة على التجدد، وقد يفهم من سياق الآية وجود علاقة دانية بين الموت والشاعر، غير أن المعنى لا يحتمل ذلك، فالموت يصيب الشاعر، وغيره، وإنما اقترنا في أذهان المتحدثين لترويجهم القول بشاعرية الرسول ﷺ، تقليلاً من شأنه، وصدّاً عن دعوته، وفي ذلك تهوين على أنفسهم بأنه ميت لا محالة كما مات من قبله من الشعراء.

وفي الآية إشارة إلى مقدار اهتمامهم بالشعراء، وخوفهم منهم، واعتبارهم في مستوى أرقى من البشر الآخرين. لذا فإنهم لما داخلهم الضيق والضجر بسبب عجزهم أمام فصاحة القرآن، وعدم قدرتهم على محاجة النبي ﷺ بالعقل، والمنطق، لجأوا إلى محاولة النيل منه عن طريق وصفه بما يخل بمقام النبوة. فوصفوه بالكاهن والمجنون[48] ـ قبل وصفه بالشاعر في هذا الموضع ـ فعرّض الله بما جاء على ألسنتهم، في قوله: ﴿**فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون**﴾[49] وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ بنفي هذه الأوصاف عنه، ثم صرح بإبطال

(45) الآية: 37 من سورة الصافات.

(46) الآية: 30 من سورة الطور.

(47) انظر: تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، (لا. ط، الدار التونسية للنشر، 1984، 27: 61، السيرة النبوية، 1: 481.

(48) الذي وصفه بالكاهن هو: شيبة بن ربيعة، والذي وصفه بالمجنون هو: عقبة بن أبي معيط، انظر التحرير والتنوير، 27:60.

(49) الآية: 29، من سورة الطور.

صفة أخرى، كانوا يثلثون بها هاتين الصفتين، وهي: صفة الشاعرية.

ولما كان انتفاء هذه الصفات عنه ﷺ من الوضوح بحيث يكفي فيها مجرد التأمل، دون حاجة إلى الاستدلال على بطلانها، لتأكدهم من براءته منها، لم يتعرض القرآن لإقامة الدليل على بطلانها، بل اكتفى بنفي بعضها، وتعليم نبيه كيف يجيبهم على البعض الآخر، بقوله: ﴿**قل تربصوا فإني معكم من المتربصين**﴾[50]، فالعرب كانت تحترز عن إيذاء الشعراء، وتتقي ألسنتهم، وتبتعد عن معارضتهم، مخافة الغلبة، وكانوا يقولون: إنما سبيلنا الصبر، وتربص موت الشاعر، لأنه يتعرض لآلهتنا بالسوء، ولا ناصر له، وسيصيبه من بعضها الهلاك[51] وقد استعملوا هذا الأسلوب مع الرسول ﷺ، فعلمه الله كيف يرد عليهم، أي: كما تتربصون هلاكي، أتربص هلاككم، وهو جواب منصف، لأنهم لغرورهم وعنادهم، اقتصروا على أنهم هم المتربصون به، ليروا هلاكه، وغاب عنهم ساعتها أنهم جميعاً أمام الموت سواء.

ويستمر القرآن الكريم في تقريع المكذبين، على طريقة أسلوب الاستفهام الإنكاري، فمن قوله تعالى: ﴿**أم تأمرهم أحلامهم بهذا، أم هم قوم طاغون**[52]، **أم يقولون تَقَوَّلَهُ، بل لا يؤمنون**﴾[53] ولما كان محتوى هذه الآيات جميعاً، من قوله تعالى: ﴿**فذكر فما أنت....**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**بل لا يؤمنون**﴾ إخباراً عن مزاعم المشركين في النبي ﷺ، طعناً في فصاحة القرآن، وبلاغته، لنفي الإعجاز عنه، ولما قد يكون لهذه المزاعم من أثر على العامة، تصدى القرآن لإبطالها جميعاً بالحجة الدامغة، فاختتم المشهد بأن تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، بقوله: ﴿**فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين**﴾[54] في مزاعمهم أن محمداً كاهن، مجنون شاعر، متقوّل للقرآن، والمعنى أن عجزهم عن

---

(50) الآية: 31 من سورة الطور.
(51) تفسير الفخر الرازي، 28: 255.
(52) الآية: 32 من سورة الطور.
(53) الآية: 33 من سورة الطور.
(54) الآية: 34 من سورة الطور.

الإتيان بمثله دليل كذبهم وافترائهم.

ومما سبق عرضه في هذا الموضع، يتضح لنا أن القرآن لم يتعرض للشاعر، من حيث هو شاعر، وإنما حكى مقالة المكذبين، وحاججهم بالعقل، والمنطق، على صدق الإعجاز القرآني، وخلوصه من شائبة الشعر، وخيال الشعراء.

4 ـ الموضع الرابع من المواضع التي ورد فيها ذكر الشاعر في القرآن الكريم، هو قوله تعالى، من سورة الحاقة: **﴿وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون﴾**[55] ورد ذكر الشاعر هنا في موقف يتعين فيه الرد على المشركين، الذين كذبوا بيوم البعث[56]. وما اقتضاه تكذيبهم هذا من التشكيك في صحة القرآن، الذي أخبر بيوم البعث، وما يترتب عليه من تكذيب الرسول ﷺ الذي جاء بالقرآن من عند ربه، إذ وصفوه بالشاعر، والكاهن، لعدم تصديقهم له، ولا لما جاء به، وقد ردّ الله عليهم، نافياً مزاعمهم، مبطلاً ما اعتقدوه، في قوة تناسب عمق معتقدهم بعدم البعث، وشدة إصرارهم على نفي الإعجاز القرآني، فابتدأ الرد عليهم: بالقسم، الذي جمع كل ما من شأنه أن يقسم به من الأمور العظيمة، الدالة على قدرة الخالق، الباعثة على التأمل، والإيمان بخالقها، فقال تعالى: **﴿فلا أقسم بما تبصرون[57]، وما لا تبصرون[58]، إنه لقول رسول كريم[59]، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون[60]، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون[61]، تنزيل من رب العالمين﴾**[62].

وقد روي عن مقاتل، في سبب نزول هذه الآيات، أن أبا جهل قال: إن

---

(55) الآية: 41 من سورة الحاقة.
(56) كما أشارت إلى ذلك الآيات المذكورة في أول سورة الحاقة.
(57) الآية: 38 من سورة الحاقة.
(58) الآية: 39 من سورة الحاقة.
(59) الآية: 40 من سورة الحاقة.
(60) الآية: 41 من سورة الحاقة.
(61) الآية: 42 من سورة الحاقة.
(62) الآية: 43 من سورة الحاقة.

محمداً شاعر، وأن عقبة بن أبي معيط قال: هو كاهن[63]، وإن صحت هذه الرواية، فإن أبا جهل وعقبة كانا يعتقدان فيما قالاه، فجاء الرد عليهما مؤكداً بالقسم الصريح، وتوالي النفي في قوله: ﴿**وما لا تبصرون**﴾، وإن، واللام، واسميه الجملة، ولفظ الرسول الدال صراحة على أن القول قول مرسله وليس بقوله، ووصف الرسول بالكريم تنزيها له عن الكذب، والجنون، إذ ليس الكاذب، ولا المجنون بكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿**إنه لقول رسول كريم**﴾.

هذا وقد جاء نفي الشاعرية، والكهانة، عن الرسول ﷺ، كناية، وليس تصريحاً، كما هو واضح، وإنما خصهما بالذكر هنا دون بقية الأوصاف، التي اعتادوا على وصفه بها: ـ كالمفتري، والمجنون والساحر ـ لأن هذه الأوصاف نفاها عنه ﷺ وصفه: بالكريم، في قوله: ﴿**رسول كريم**﴾. لأن من يتصف بها لا يكون كريماً، أما الشاعر، والكاهن، فقد كانا معدودين عندهما من أهل الشرف[64].

وهكذا تظهر لنا قوة إصرارهم على وصفه بالشعر، والكهانة، نفياً للإعجاز القرآني، لذا جاء الرد في قوة إنكارهم، مؤكداً لإعجاز القرآن، بنفي الشعر والكهانة عن الرسول ﷺ، فالقرآن ليس بالشعر، لأنه مباين لصنوف الشعر كلها، بشهادة أحد أكبر شعرائهم، وهو أنيس أخو أبي ذر الغفاري ـ كما سيأتي ـ[65]، ولا هو بالكهانة، لأنه ورد بسبّ الشياطين وشتمهم، والكاهن يتلقى وحيه من الشيطان، فلا يعقل أن يتحدث بسببه[66]، وبذلك ينتفي عنه الشعر، والكهانة، وتثبت له معجزة القرآن العظمى[67].

ومن مضمون الآية السابقة: ﴿**وما هو بقول شاعر**﴾، يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: ما معنى تعقيبه على الشاعر بجملة: ﴿**قليلاً ما تؤمنون**﴾، وتعقيبه

---

(63) انظر: تفسير التحرير والتنوير 29: 142 وتفسير القرطبي، 18: 274.
(64) انظر تفسير التحرير والتنوير، 29: 142.
(65) انظر: ص 19 من هذا البحث.
(66) انظر تفسير القرطبي، 18: 275، وتفسير الفخر الرازي، 30: 117-118.
(67) انظر: روح المعاني، 29: 53.

على الكاهن بجملة: ﴿قليلاً ما تذكرون﴾؟.

ولعل أوضح إجابة عن هذا السؤال هي ما أورده الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، في التحرير والتنوير[68]، حيث يقول: (وأوثر نفي الإيمان عنهم في جانب انتفاء أن يكون قول شاعر ونفي التذكر في جانب انتفاء أن يكون قول كاهن، لأن نفي كون القرآن قول شاعر بديهي، إذ ليس فيه ما يشبه الشعر.. فادعاؤهم أنه قول شاعر: بهتان متعمد، ينادي على أنهم لا يرجى إيمانهم، وأما انتفاء كون القرآن قول كاهن، فمحتاج إلى أدنى تأمل، إذ قد يشبّه في بادىء الرأي على السامع، من حيث أنه كلام منثور، مؤلف على فواصل، ويؤلف كلام الكهان على أسجاع مثناة، متماثلة، زوجين زوجين، فإذا تأمل السامع فيه بأدنى تفكر في نظمه، ومعانيه، علم أنه ليس بقول كاهن، فنظمه مخالف لنظم الكهان... فلذلك كان المخاطبون بالآية منتفياً عنهم التذكر والتدبر.

وتختتم السورة بالتأكيد على معنى نَفْي: الشعر، والكهانة، والافتراء، والسحر، وغيرها من الأوصاف التي ألحقوها بالرسول ﷺ، بأسلوب حازم، قوي، رصين، وذلك قوله تعالى: **﴿ولو تقول علينا بعض الأقاويل[69]، لأخذنا منه باليمين[70]، ثم لقطعنا منه الوتين[71] فما منكم من أحد عنه حاجزين[72]، وأنه لتذكرة للمتقين[73] وإنا لنعلم أن منكم مكذبين[74] وإنه لحسرة على الكافرين[75]، وإنه لحق اليقين[76]، فسبح باسم ربك العظيم﴾**[77].

---

(68) التحرير والتنوير، 29: 143.
(69) الآية: 44 من سورة الحاقة.
(70) الآية: 45 من سورة الحاقة.
(71) الآية: 46 من سورة الحاقة.
(72) الآية: 47 من سورة الحاقة.
(73) الآية: 48 من سورة الحاقة.
(74) الآية: 49 من سورة الحاقة.
(75) الآية: 50 من سورة الحاقة.
(76) الآية: 51 من سورة الحاقة.
(77) الآية: 52 من سورة الحاقة.

وواضح مما سبق عرضه أن هذه الآيات الأربعة، التي ورد فيها ذكر الشاعر، إنما سبقت للرد على المشركين، ومحاجتهم، لما وصفوا الرسول ﷺ بالشاعر، والقرآن بالشعر، لدهشتهم من بلاغته التي فاقت تصورهم، وقد دفعتهم هذه الدهشة إلى تصنيف القرآن تحت أرقى ما ألفوه من ضروب الكلام المؤثر، مثل: الشعر، والسحر، والكهانة، فنفى الله عن رسوله ﷺ هذه الصفات، لينتفى زعمهم أن القرآن شعر.

وظاهر وصفهم له بالشاعر في الآيات المذكورة، إعجابهم لما أتى به من ضروب الفصاحة والبلاغة، وهو الشيء الذي لم يعهدوه من قبل إلا عند الشعراء، وأمثالهم من الكهنة، والسحرة، وهم في الحقيقة يقصدون إلى الحط من قدره، والإزراء به أمام العامة، كي ينفروا من دعوته، وذلك لما يلزم هذا الوصف من الكذب، والمبالغة المفرطة في المدح، والذم، وتحسين القبيح، وتقبيح الحسن، والتعامل مع الجن، إلى غير ذلك مما ينقص من شأن الرجل العاقل.

ولكن هل تشير الآيات أيضاً إلى تقبيح الشعر؟ ظاهرها أنها لا تمس الشعر ـ من حيث هو شعر ـ بسوء، إنما سبقت لغرض إبطال مزاعم المشركين، في إدعائهم بشاعرية الرسول، تشكيكاً في إعجاز القرآن، غير أنها تشير إلى ذلك في معناها البعيد، إذ ورد لفظ الشاعر في الآيات الثلاثة الأولى ـ حكاية عن المشركين ـ مقترناً بالافتراء، والجنون، وتربص الموت، **﴿بل افتراه بل هو شاعر﴾**، **﴿أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون﴾**، **﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾**. وفي هذه المواضع الثلاثة جاء المعنى بتحقير الشاعر، والغض من قدره ـ على رأي المشركين ـ وفي ذلك إشارة إلى تحقير الشعر عن طريق الكناية، أمَّا في الآية الرابعة: **﴿وما هو بقول شاعر﴾** فواضح أن المعنى هو نفي الشاعرية عن القرآن، دون مساس بالشعر.

وإذا لاحظنا أن الآيات السابقة جميعها مكية، عرفنا أن القرآن الكريم كان يرد على تعنت القوم، وإنكارهم، بما يقتضيه العقل، والمنطق، وفق منهج القرآن المكي، وأنه لم يتخذ موقفاً محدداً من الشعر، إلا بعد استقرار الدعوة الإسلامية،

وسوف نعرف ذلك في موضوعه من هذا البحث[78]. عند عرض آية: ﴿**الشعراء يتبعهم الغاوون**﴾، مع ملاحظة أن التسلسل المنطقي يوجب ذكر هذه الآية بعد الآيات السابقة مباشرة لأنها تعرضت للفظ (الشعراء) وهو جمع شاعر، غير أن المقام يتطلب تأخيراً لسببين:

أولاهما: أنها مدنية.

وثانيهما: أنها جاءت لتأصيل وتثبيت الجانب الفني للشعر، والتفريق بين الغث والسمين منه، حيث أوضحت ما هو جائز، ومفيد، من الشعر، وما هو ضار، ومحرم اتباعه، وهو الحكم النهائي في قضية موقف القرآن من الشعر.

ثانياً: لفظ الشعر: ـ

وردت كلمة (الشعر) في سورة واحدة، هي: سورة (يس)، فلنتبع المعنى الذي وردت فيه:

يقول الله تعالى: ﴿**وما علمناه الشعر، وما ينبغي له، إن هو إلا ذكر، وقرآن مبين**﴾[79] وإذا لم يتبين موقف واضح للقرآن الكريم من الشعر في الآيات السابقة، فإن هذه الآية تبدو أكثر وضوحاً في الغض منه، ولكن هل ذلك من خصوصيات الرسول ﷺ فقط؟

أرى أن الآية واضحة في تأكيد نفي الشعر عن الرسول ﷺ، دون غيره من أفراد أمته، بدليل عود الضمير في (علمناه)، و(له)، عليه ﷺ، على الأرجح[80]، لأن الشعر ينافي مقام النبوة، وهذا من الوضوح بحيث لا يخفى على المتأمل، إذ أن الشعر يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ، والوزن، فالشاعر غالباً ما يكون معناه تبعاً للفظه، بدليل أنه يتصرف في ترتيب الكلام بما يخالف أسس

---

(78) انظر: ص: 31، وما بعدها من هذا البحث.

(79) الآية: 69 من سورة يس.

(80) هناك من يقول بعود الضمير في (له) على القرآن، أي: وما يصح للقرآن أن يكون شعراً، انظر روح المعاني، 23: 48، والتحرير والتنوير، 23: 61.

البلاغة، أحياناً، مثل ما وقع لبعض الشعراء من المخالفات اللفظية، التي أخرجت أساليبهم عن مقتضى البلاغة، فصنفت تحت اسم الضرورة الشعرية، فهو قد يضطره لفظ معين إلى تغيير المعنى، أو تعديله، ولأن المبالغة في المدح، والذم، والإغراق في الوصف وتحسين ما ليس بحسن، وتقبيح ما ليس بقبيح، من صفات الشعر الجيد، وكذلك يستدعي الكذب، أو يحاكيه، ما لا يليق بمقام النبوة، والتشريع، أما الشارع فيكون اللفظ منه تبعاً للمعنى، ولذلك خلا القرآن الكريم، من مثل ما وقع فيه الشعراء، من الضرورات، وجاءت ألفاظه كلها وفق مقتضيات البلاغة، المعروفة عند العرب، مما دفعهم إلى التشكيك في بلاغته، بترويجهم إلحاق صفة الشاعرية بالرسول ﷺ[81].

ومفهوم جملة: (وما ينبغي له): لا يليق به، ولا يصلح له[82]، وقال ابن الحاجب: لا يستقيم عقلاً أن يقول الشعر[82 مكرر]، وقال ابن عاشور: لا يتأتى له، لأن أصل (ينبغي): يستجيب للبغي، أي: الطلب وهو يشعر بالطلب الملح، ثم غلب في معنى: يتأتى، ويستقيم[83] وقال الزجاج: معنى (وما ينبغي له) أي: ما يتسهل له قول الشعر لا الإنشاء[84]، وكل هذه التخريجات لعبارة: (وما ينبغي له) تدور حول معنى نفي الشعر عن الرسول ﷺ نفياً قاطعاً، فهي في حقيقتها تتفق على معنى واحد، هو: تنزيه الله لنبيه ﷺ عن قول الشعر ليقطع من نفوس المكذبين التعلق بهذه الشبهة، وكلها تخريجات صحيحة تخدم المعنى العام، وهو اقتلاع الشبهة من أساسها.

وإذا عرفنا أن هذه الآية كسابقاتها، من حيث كونها مكية، نزلت رداً لادعاءات المشركين في الرسول ﷺ، والقرآن الكريم، ظهرت لنا الغاية من هذا الموقف الحازم للقرآن من الشعر في الجانب الذي يخص مقام النبوة، فإسناد

---

(81) انظر: التحرير والتنوير، 23: 61-63، والفخر الرازي، 26: 104-105، وروح المعاني، 23: 47.

(82) انظر روح المعاني، 23:47.

(83) انظر: التحرير والتنوير، 23: 63.

(84) انظر: القرطبي، 15: 55.

ضمير الفاعل في (علمناه) من قوله تعالى: ﴿**وما علمناه الشعر**﴾ إلى نفسه، إشارة واضحة إلى أن الرسول ﷺ معلم من عند الله وأن الله علمه ما أراد، ومنعه من تعلم ما لا يريد، وأن ما علمه إياه لم يكن شعراً، وأنه ليس بشاعر، فالمعنى: نحن علمناه القرآن، وما علمناه الشعر، أي: أن القرآن ليس بشعر كما تدعون، وكأن المعنى يتطلب رداً على سؤال يقتضيه المقام مفهوم من السياق، وهو: إذا لم يعلم الشعر، فماذا علم؟ فجاء الرد بقوله: ﴿**إن هو إلا ذكر وقرآن مبين**﴾[85].

ولا يخفى على المتأمل أن القرآن الكريم يباين الشعر لفظاً ومعنى، أما لفظاً: فلعدم وزنه، وتقفيته، لأن ما بني عليه أسلوب القرآن، من تساوي الفواصل، لا يجعلها موازية للقوافي، ولا يوجد ترابط بينها وبين الشعر، وذلك كان واضحاً لديهم، بدليل أن الوليد بن المغيرة جمع قريشاً ليتشاوروا في أمر النبي ﷺ، قبل أن ترد عليهم وفود العرب، لحضور الموسم، ليجمعوا فيه رأياً موحداً، ولما بدأوا بعرض الآراء، جعل الوليد يفندها، حتى قالوا: نقول: شاعر، فرد عليهم بقوله: ما هو بشاعر، قد عرفت الشعر كله، رجزه، وهزجه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه، وما هو بشاعر[86]. وأن أنيس بن جنادة الغفاري ـ وكان واحداً من الشعراء المشهود لهم بالسبق ـ لما بعثه أخوه أبو ذر الغفاري ليستقصي أخبار النبي ﷺ، وما تقول عنه العرب، قال ـ بعد عودته ـ: (رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر، قال أبو ذر: فما يقول الناس: قال: يقولون: شاعر، ساحر، كاهن، ولقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على قراء الشعر، فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر)[87]. ومن هذا نفهم أن نسبتهم القرآن إلى الشعر، هو قصد منهم لإبطال الإعجاز القرآني، ومحاولة صرف أنظار الناس عنه، وعن بلاغته.

وأما مباينة القرآن للشعر من جهة المعنى: فلأن الشعر تخيلات مرغبة أو

---

(85) انظر: التحرير والتنوير، 23: 47.

(86) انظر: السيرة النبوية، 1: 270.

(87) انظر: التحرير والتنوير، 23: 47-48.

منفرة، وهو مظنة الأكاذيب، والافتراءات، والقرآن الكريم حكم، وعقائد، جاءت لمصلحة البشر[88]، فعِلَّةُ نفي الشعر عن الرسول ﷺ كامنة فيما يتضمنه الشعر من أكاذيب، وتزويق، وتمويه للحقائق، وغيرها من مصاحبات الشعر، وهذا ينافي مقام الرسالة، ويخل بالإعجاز القرآني، وإذا ثبت الإعجاز للقرآن، بشهادة المكذبين أنفسهم، ثبت إبطال هذه الدعوى.

وقد يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: لم خص الله سبحانه وتعالى الشعر بنفي التعليم، دون السحر، والكهانة، وغيرهما من الأوصاف المأثورة عنهم، فلم يقل: وما علمناه السحر، أو وما علمناه الكهانة، مع أن وصفه بهما أكثر إحراجاً له ﷺ من وصفه بالشعر؟

وتتضح الإجابة عن هذا السؤال، عند تفسير الرازي لهذه الآية، إذ يقول: (أما الكهانة: فكانوا ينسبون النبي ﷺ إليها، عندما كان يخبر عن الغيوب، ويكون كما يقول، وأما السحر فكانوا ينسبونه إليه، عندما كان يفعل ما لا يقدر عليه الغير، كشق القمر، وتكلم الحصى... وأما الشعر فكانوا ينسبونه إليه عندما كان يتلو القرآن عليهم، لكنه ﷺ ما يتحدى إلا بالقرآن.. فلما كان تحديه بالكلام، وكانوا ينسبونه إلى الشعر عند الكلام، خص الشعر بنفي التعليم)[89] ليثبت الإعجاز للقرآن.

وما سبق الحديث عنه من نفي تعليم الشعر عن النبي ﷺ، لا يوجب نفي قدرته على نظم الشعر، لأن تلك المقدرة لا تسمى تعليماً حتى تنفى[90]، وليس هناك ما يمنع أن تكون عند النبي ﷺ المقدرة الشعرية وراثة، فهو من عائلة توارثت الشعر، وكثر فيها الشعراء رجالاً ونساء، ولعل ذلك أحد الأسباب التي شجعت أعداءه على وصفه بالشاعر، ولكن إعداد الله له ليكون رسولاً، أبعده منذ طفولته المبكرة عن كل ما له علاقة بميدان الشعر كمواطن اللهو،

---

(88) انظر: روح المعاني، 23: 26.

(89) تفسير الفخر الرازي، 26: 104.

(90) انظر التحرير والتنوير، 23: 28.

والمفاخرات، ليحول بينه وبين الشعر، ويخمد في نفسه تلك القدرة عليه، وفي تفسير العلماء لقوله تعالى: ﴿وما ينبغي له﴾ إشارة إلى وجود هذه القدرة، وأن الله لم ييسر له، أو لم يسهل له قوله، ليكون ذلك من أبرز صفاته، لئلا تدخل الشبهة على من أرسل إليهم من المكذبين، فيظنون أنه قوي على القرآن، بما في طبعه من القوة على الشعر[91].

وكذلك نفي تعليمه نظم الشعر، لا يوجب نفي إنشاده له، ونقده إياه، فالذي نفاه الله عنه، هو العلم به، وبأصنافه، وبأعاريضه وقوافيه، والاتصاف بقوله[92]، فهو منزه عن قرض الشعر، وتأليفه، أي ليست من طباع ملكته إقامة الموازين الشعرية، وليس المراد أنه لا ينشد الشعر، لأن إنشاد الشعر غير تعلمه، وكم من راوية للأشعار، ومن نقاد للشعر، لا يستطيع قول الشعر[93].

هذا وقد أثار بعض المشككين شبهة إنشاد الرسول ﷺ للشعر، بناء على بضعة أبيات ينسبونها إليه، وشبهة مجيء بعض فقرات من القرآن على وفق أوزان البحور الشعرية، والمقام يقتضي مناقشة هاتين الشبهتين، والرد عليهما: -

أولاً: شبهة إنشاد الرسول ﷺ للشعر:

قامت هذه الشبهة حول ما أثر عن النبي ﷺ من قوله:

هل أنت الا اصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

وقوله:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وفي البيت الأول نظر: فقد ورد في القرطبي[94] نسبة هذا البيت

---

(91) انظر: القرطبي، 15: 54-55، والتحرير والتنوير، 23: 57-58.

(92) انظر: القرطبي، 15:53.

(93) انظر: التحرير والتنوير، 23:63.

(94) القرطبي، 15: 52.

للنبي ﷺ، في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر﴾ إذ يقول: (وكذلك ما يأتي أحياناً من نثر كلامه ما يدخل في وزن، كقوله يوم حنين، وغيره: (هل أنت...) وأورد البيت، وهذا مخالف لما ورد عن ابن هشام في السيرة النبوية، إذ ينسب للوليد بن الوليد بن المغيرة[95]، وقد بعثه النبي ﷺ لتخليص: عياش بن ربيعة، وهشام بن العاصي، من أسر قريش، وفي طريق العودة بهما، بعد تخليصهما، عثر، فدميت إصبعه، فقال: هل أنت... البيت[96]، ونجد عند ابن ربه في العقد الفريد رواية أخرى مرفوعة إلى النبي ﷺ مفادها: أنه لما دخل الغار مع أبي بكر، نكب في إصبعه، فدميت، فأنشد هذا البيت[97].

وأرى أن رواية ابن هشام هي الأقرب إلى التصديق، وذلك لإيراده القصة التي أنشىء بسببها البيت، ولأن القرطبي لم يذكر مصدره، كما أنه يبدو متردداً في عبارته التي قدم بها للبيت، إذ يقول: (كقوله يوم حنين وغيره).

ولا يستبعد أن يكون النبي ﷺ قد استشهد به يوم حنين في واقعة مشابهة، كما أشار إلى ذلك الألوسي بقوله ـ ولم يذكر غزوة بعينها ـ: (وروي أنه ﷺ أصاب إصبعه الشريفة حجر في بعض غزواته، فتمثل بقول الوليد بن المغيرة (وأورد البيت). ويظهر أنه أيضاً، غير متأكد من نسبة البيت للوليد، فعلق عليه بقوله: (وقيل هو له عليه الصلاة والسلام)[98].

وواضح مما سبق أن نفي هذا البيت للنبي ﷺ، أرجح من نسبته له.

أما البيت الثاني: فينسبه إلى الألوسي، بقوله: (قال يوم حنين، وهو على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحرث آخذ بزمامها، ولم يبق معه، عليه الصلاة والسلام، من الناس إلا قليل: أنا النبي لا كذب.... البيت)[99]، كما ينسب

(95) ورد في روح المعاني، 23: 48، أنه للوليد بن المغيرة.
(96) انظر: السيرة النبوية، 1: 476.
(97) العقد الفريد، 5: 282-283.
(98) روح المعاني، 23: 48-49.
(99) السابق، 23: 48.

له ابن عاشور، فيقول حين يورد البيت (مثل قولهم يوم أحد)[100]، ويظهر عدم اتفاقهما على غزوة واحدة.

وفي رواية ابن السائب (الكلبي): (كان حول رسول الله ﷺ يومئذ ـ يوم حنين ـ ثلاثمائة من المسلمين، وانهزم سائر الناس عنه، وجعل رسول الله ﷺ يقول للعباس، ناد: يا معشر الأنصار، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، فنادى ـ وكان صيّتاً ـ فأقبلوا وكأنهم الإبل إذا حنت على أولادها، يقولون (يا لبيك، يا لبيك، فحملوا على المشركين، فأشرف رسول الله ﷺ فنظر إلى قتالهم، فقال: (الآن حَمِيَ الوطيس)، (أنا النبي لا كذب... البيت)[101].

غير أننا لم نجد لهذا البيت أثراً فيما أورده ابن هشام في السيرة حول غزوة حنين، بل أورد خبراً مماثلاً لما روي عن الكلبي، رواه عن ابن إسحق، عن الزهري، عن كثير بن عباس، عن أبيه العباس بن عبد المطلب، لم يذكر فيه البيت، ملخصه: أن العباس بن عبد المطلب كان مع رسول الله ﷺ يوم حنين، آخذاً بعنان بغلته، فأمره رسول الله ﷺ أن يصرخ في الناس حين انهزموا، فصرخ فيهم، فلبوا النداء، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة، واشتبكوا مع الكفار، أشرف عليهم الرسول ﷺ وهم يقاتلون، فقال: (الآن حَمِيَ الوطيس)[102] ولم يشر إلى البيت لا في غزوة حنين ولا في غزوة أحد، بل أنني لم أعثر عليه في مظانه من سيرة ابن هشام ـ ولا يعقل أن ابن هشام، أو ابن إسحق، ممن يغفل مثل هذا الوجود، ولا سيما ابن إسحق، الذي انتقد على إيراده كثيراً من الأخبار التي لم تثبت أمام التمحيص والنقد.

ويرجح ما ذكرنا.. أن الفخر الرازي لا يجزم بنسبته إلى الرسول ﷺ إذ يقول، في سياق دحضه شبهة الشعر عن القرآن: (وعلى هذا يحصل الجواب على

---

(100) التحرير والتنوير، 23: 65.

(101) انظر: نهاية الارب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، (لا. ط، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، القاهرة، لا. ت) 17: 328.

(102) انظر: السيرة النبوية، 2: 444-445.

قول من قال: إن النبي ﷺ ذكر بيت شعر، وهو قوله: (أنا النبي... البيت)[103].

ولا يبعد أن يكون الكلبي هو المصدر الأول لرواية هذا البيت كما رأينا، وهو من الرواة غير الموثوق بهم، لقوة ضعفه وكذبه، كما أشار البزار إليه)[104].

وما قيل في الحكم على البيت الأول، ينسحب على هذا البيت، إذ لم تثبت صحة نسبتها للرسول ﷺ، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال بطل به الاستدلال، كما يقول الأصوليون، وعلى هذا انتفت الشبهة الأولى القائمة على نسبة هذين البيتين للنبي ﷺ، ولا نحتاج في نفي نسبتهما إليه ﷺ إلى مزيد من الأدلة.

ولما كان الموقف يفرض على علماء المسلمين التصدي لأدنى الشبهات، ودحضها، فقد جاروا المشككين في افتراض صحة نسبة البيتين إليه ﷺ، وأخرجوهما عن مسمى الشعر، بأدلة لا يتطرق إليها الشك[105].

ثانياً: شبهة موافقة بعض فقرات من القرآن لأوزان الشعر:

أما الشبهة الثانية: وهي مجيء فقرات من القرآن على أوزان البحور الشعرية، مما يقدح في الإعجاز القرآني، ويشوش أفكار الضعفاء، والعامة من الناس، فقد تصدى للرد عليها جمهور علماء المسلمين بما فيه الكفاية، ويحسن بنا أن نقف عند بعض هذه الردود:

فهذا ابن العربي، مثلاً، يقول: (وقد اعترض جماعة من فصحاء الملحدة علينا في نظم القرآن، والسنة، بأشياء أرادوا بها التلبيس على الضعفة، منها قوله

---

(103) انظر: الفخر الرازي، 26: 105.

(104) انظر: نهاية الارب، 16: 256.

(105) انظر مثلاً: التحرير والتنوير 23: 65، وروح المعاني، 23: 48-49. والفخر الرازي، 26: 105، والقرطبي 15: 52-54، وتاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، (ط: 2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1974م)، 2: 308 وما بعدها.

تعالى: ﴿فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾[106]، وقالوا إن هذا من بحر المتقارب، على ميزان قوله:

فـأمـا تميـم، تمـيـم بـن مـر فـألفـاهم القـوم رويـى نيـامـا

وهذا إنما اعترض به الجاهلون بالصناعة، لأن الذي يلائم هذا البيت من الآية، قوله: (فلما.... إلى قوله: كل) وإذا وقفنا عليه لا يتم الكلام، وإذا أتممناه بقوله: (شيء شهيد) خرج عن وزن الشعر)[107].

وعلى هذا النحو يتتبع مواطن الشبهات فيرد عليها، وقد أورد من ذلك أمثلة وفيرة، وقال ـ بعد عرض بحور الشعر العربي ـ: (ولقد اجتهد المجتهدون في أن يجبروا القرآن أو شيئاً منه على وزن من هذه الأوزان، فلم يقدروا، فظهر عند الولي، والعدو، أنه ليس بشعر)[108].

وسلك هذا المسلك من قبله، أبو بكر الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن)، مشيراً في بعض ردوده إلى أن البيت المفرد لا يسمى شعراً، بله المصراع الذي لا يكمل به البيت[109]، وهذا وإن كان لا ينفي مسمى الشعر من المصراع، ومن باب أولى عن البيت، كما اعترض ابن عاشور عليه[110] فإن علماء العروض يرون أن أقل ما يقع عليه اسم الشعر ثلاثة أبيات، ويذهب الخفاجي إلى أن أقل الشعر بيتان، لأن التقفية لا تمكن في أقل منهما[111]، وعلى هذا فإن البيت المفرد، وأولى المصراع، لا يؤبه له في باب الشعر، إلا من قبيل سد باب الشبهة، وذلك ما قصد إليه ابن عاشور، وهو محق.

---

(106) الآية: 117 من سورة المائدة.

(107) أحكام القرآن، أبو بكر محمد بن عبد الله المشهور: بابن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط: 3، مطبعة الحلبي، مصر، 1972 م، 4: 1610.

(108) السابق.

(109) إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، (شرح: محمد خطابي، ط: 1، محمد علي صبيح، القاهرة، 1951)، 85.

(110) انظر: التحرير والتنوير، 23: 28.

(111) انظر: سر الفصاحة، عبد الله بن محمد بن سنان الخفاجي، (شرح: عبد المتعال الصعيدي، لا. ط. مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، 1969 م)، ص 278.

كما سلكه السكاكي، أيضاً، على نحو مشابه، إذ طرح القضية في شكل جدل منطقي، أساسه قول الله تعالى: ﴿**وما علمناه الشعر**﴾، فالأمر يستدعي ألا يكون فيما علمه شعر، وذلك لا يخلو من أحد أمرين: إما أن الله جاهل، لا يعلم ما الشعر، وإما أن الدعوة باطلة، لأن القرآن يشتمل على موازين شعرية من جميع البحور، ثم يبدأ في استعراض آي القرآن الكريم، وعرضها على بحور الشعر، مثل قوله:

فمن الطويل من صحيحه: ﴿**فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر**﴾ ومن مخرومه: ﴿**منها خلقناكم وفيها نعيدكم**﴾، ومن المتقارب: ﴿**وأملي لهم أن كيدي متين**﴾.

وهكذا يذكر: المديد، والوافر، والكامل، إلى آخر بحور الشعر العربي.

وكان رده على ذلك، أيضاً، منطقياً يتناسب مع منطقهم في إيرادهم لهذه الشبهة، مفاده:

لو سلمنا بصحة ما ذهبوا إليه، متغاضين عن مخالفتهم لأحكام علم العروض، في أعاريضه، وأضربه، وزحافاته، وعلله، وعدم مراعاتهم القصد فيما يسمى شعراً ـ وفيه ما يكفي لإبعاد شبهة الشعر عن القرآن ودحض حجتهم ـ أليس يصح بحكم التغلب ألا يلتفت إلى ما ورد في القرآن من فقرات متزنة، لقلتها، بل لندرتها، إذا ما قيست بما رود فيه سليماً من الإتزان ويجري القرآن مجرى الخالي من الشعر، فيقال بناء على مقتضى البلاغة: ﴿**وما علمناه الشعر**﴾[112].

ويعقب ابن عاشور على ما قاله: ابن العربي، والسكاكي بما يفيد عدم اقتناعه بطريقتهم في الرد على الملاحدة، إذ لم يتعمقوا جذور الشبهة، فيقتلعوها من أساسها، ويرى أن دورهم على المصراع، والبيت، غير ذات جدوى، لأن وقوع ما يساوي بيتاً تاماً من بحر من بحور الشعر، ولو نادراً، أو مزحفاً، أو

---

(112) نقلاً عن التحرير والتنوير، 23: 58-61 بتصرف.

معلاً، كاف في بقاء الإشْكال، بل إنه لم يعبأ بهذه الردود، فيقول (فلا حاجة إلى ما سلكه ابن العربي في رده)[113]، ولا يخفى ما في عبارته من عدم اعتداد برد ابن العربي، مع أننا لا نستطيع أن ننفي عنه الجهد والفائدة، ويقول: (ولا كفاية لما سلكه السكاكي في كتابه)[114]، معللاً ذلك: بأن المردود عليهم لمكابرتهم، قد يلجأون إلى أضعف المذاهب في حقيقة الشعر بما يلائم نحلتهم، فيتشبثون بالبيت المفرد، والمصراع، مما يدخل تحت مسمّى الشعر، وذلك صحيح، لو أن السكاكي غفل عنه، إلا أنه لم يغفله، فجعله من القليل النادر الذي لا يلتفت إليه، وإن كان يدخل تحت مسمى الشعر: لأن البيت المفرد والمصراع، لا اعتبار له في عرف العرب، ولا يسمى شعراً، ولا صاحبه شاعراً، والقرآن نزل محتوياً لغة العرب بكل ما تشمل عليه من طرق، ومناهج، ومع ذلك فاقهم في نظمه العجيب، مما أدهشهم وهم في قمة الفصاحة والبلاغة[115]، ولما كانت فصاحتهم وبلاغتهم مودعة في أشعارهم فقد تحداهم القرآن ـ في أكثر من موضع ـ أن يأتوا بمثله، فلو كان القرآن يحتوي على شعر، أو ما يشبهه، لما خفي عنهم ذلك، ولما ترددوا في نقضه بكل قوة، لا سيما وهم ـ مع عنادهم وغرورهم ـ في موقف التحدي[116].

ومن هنا لا نستطيع أن نغفل، أو نتجاهل، ردود ابن العربي، والسكاكي، وغيرهم ممن سبقهم، أو جاء بعدهم، ممن بحثوا في هذه القضية، وردوا على شبهات المشككين، فكل قد حاول نفي شبهة الشعر عن القرآن، بالطريقة التي تتلاءم وموقف المتحدين في عصره، فالطريقة التي سلكها ابن العربي، والسكاكي، ومن جرى مجراهم، في ردهم، إنما ألجأهم إليها مسلك المشككين في إثارتهم للشبهة، فهي من قبيل: مجاراة الخصم لإقامة الحجة عليه.

ولم أجد سبباً مقنعاً يبرر ما ذهب إليه ابن عاشور في عدم الاعتراف بآراء

---

(113) السابق 23: 60.

(114) السابق.

(115) انظر: سر الفصاحة، 278-279، وموسيقى الشعر، 356 وما بعدها.

(116) إعجاز القرآن، 43-49.

من سبقه في هذا الخصوص، إذ يقول: (ولم أر لأحد من المفسرين، والخائضين في وجوه إعجاز القرآن، التصدي لاقتلاع هذه الشبهة ـ وقد مضت عليها من الزمان برهة ـ وكنت غير مقتنع بتلك الردود ولا أرضاها)[117].

والذي يظهر لي من ثنايا رده، أنه لم يأت بجديد يذكر، فخلص كلامه يدور حول أسلوب القرآن ونظمه ـ محل الإعجاز ـ وذلك ما أثبته عبد القاهر الجرجاني منذ القرن الخامس الهجري في نظرية النظم[118]، ومن قبله أبو بكر الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن)[119] ثم أنه لم يبعد كثيراً عما أثاره السكاكي في رده على الملاحدة، غير أن السكاكي ذهب إلى استقصاء أجزاء الشبهة تفصيلاً بما يتناسب وطرح الملاحدة لها من باب مجاراة الخصم لردعه، وابن عاشور سلك منهجاً آخر يتمثل في نفي الشبهة من أساسها، دفعة واحدة، عن طريق سد باب الخوض فيها مرة ثانية، وذلك لعجزهم عن معارضة القرآن باقتناعهم ـ داخلياً على الأقل ـ بأنه في مستوى يفوق مقدرتهم البلاغية، والشعرية، فهو يقول: (واعلم أن الحكمة في أن لا يكون القرآن من الشعر، مع أن المتحدَّين من بلغاء العرب، وجلهم شعراء، وبلاغتهم مودعة في أشعارهم، هي الجمع بين الإعجاز وبين سد باب الشبهة التي تعرض لهم لو جاء القرآن على موازين الشعر.. فكان القرآن معجزاً لبلغاء العرب بكونه من نوع كلامهم، لا يستطيعون جحوداً لذلك، ولكنه ليس من الصنف المسمى بالشعر، بل هو فائق على شعرهم في محاسنه البلاغية، وليس هو في أسلوب الشعر بالأوزان التي ألفوها، بل هو في أسلوب الكتب السماوية والذكر)[120].

ولا اعتراض على ذلك، فالقرآن معجز ببلاغته، ونظمه العجيب جملة وتفصيلاً، كما أنه خارج عن مفهوم مسمى الشعر عندهم، غير أن المعاندين

---

(117) انظر التحرير والتنوير، 23: 61.

(118) انظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، (تعليق: محمد خفاجي، ط: 1، مطبعة الفجالة، القاهرة، 1969 م. ص 80 وما بعدها.

(119) انظر: إعجاز القرآن، فصل: في جملة وجوه إعجاز القرآن، 60-77.

(120) انظر: التحرير والتنوير، 23: 61-62.

ـ على الرغم من اقتناعهم بعجزهم ـ لا يزالون يثيرون الشكوك، والشبهات ويبحثون عنها أنى وجدوها، ومن ذلك شبهة ملاءمة بعض فقرات القرآن لأوزان بحور الشعر العربي، مما قد يسبب في تقوية شك ضعفاء النفوس، وتشويش أفكار المثقفين، لذا فإن تتبعها والرد عليها. أفضل ـ عندي ـ من غض الطرف عنها.

هذا وقد اتفق رأي أغلب الباحثين[121] قديماً وحديثاً على أنه لا يوجد في الآية المذكورة ما يدل على منع النبي ﷺ من التحدث بالشعر، والاستشهاد به، وقد ثبت في الروايات الصحيحة أنه ﷺ نبه على بعض مزايا الشعر، وفضل بعض الشعراء على بعض، وقَبِل شفاعتهم، وأثابهم على أشعارهم، وشجعهم على قول الشعر، وتمثل به في أكثر من موقف، فمثلاً: ثبت عنه أنه قال: (إن من الشعر لحكمة، واستمع يوماً إلى النابغة الجعدي ينشد، فلما بلغ إلى قوله:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وأنا لنرجو فوق ذلك مظهراً

تبين على وجهه ﷺ كراهيته لهذا المعنى المغرق في المدح، لأنه لمس فيه روحاً جاهلية، فاستوقفه قائلاً: إلى أين يا أبا ليلى؟ فأجابه: إلى الجنة، فسرّ بجوابه، ولما وصل إلى قوله:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يُكدَّرا
ولا خير في جهل إذا لم تكن له جلية إذا ما أورد الأمر أصدراً

أثر جمال البيتين في الرسول ﷺ، فقال له في ثناء وإعجاب: لا يفضُض الله فاك[122].

وكان حسان شاعره المفضل، وكان يشجعه على قول الشعر، بقوله: (اهجهم وروح القدس معك) كما شجع عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك[123].

---

(121) انظر التحرير والتنوير 23:61-62.

(122) انظر: الشعر والشعراء، عبدالله بن مسلم بن قتيبة، (تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط: 2، دار المعارف بمصر، 1966 م، 1: 289.

(123) السيرة النبوية، 2: 43-44.

وبلغه شعر قتيلة بنت الحارث، في رثاء أخيها النضر ـ وقيل في رثاء أبيها ـ وكان ممن قتل يوم بدر، فقال: لو بلغني هذا قبل قتله، لمننت عليه[123].

وقبل شفاعة كعب بن زهير بشعره، وأثابه عليه بعد أن أهدر دمه[124].

كما ثبت أنه تمثل بكثير من الأبيات، في مواقف مختلفة كتمثله ببيت طرفة المشهور:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وبقَوْلِ العباس بن مرداس:

أتجعل نهبي ونهب العبيـ ... ـد بين عيينة والأقرع[125]

وبغيرها من الأبيات، إلا أنه كان يكسر وزنها فيخرجها عن حد الشعر، فيعيده الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إليها، فيعيدها كما نطقها أولاً، لا يستقيم لسانه على وزن، فقد نطق بيت طرفة، السابق، مثلاً:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك من لم تزود بالأخبار

كما أنشد بيت العباس، المذكور:

أتجعل نهبي ونهب العبيـ ... ـد بين الأقرع وعيينة

وكان تمثله بالبيت المتزن نادراً[126]، وروي أنه أنشد بيت عبد الله بن رواحة كاملاً على النحو التالي:

ببيت يجافي جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع[127].

---

(123) السيرة النبوية 43:2.
(124) السابق.
(125) السابق.
(126) انظر: روح المعاني، 48/23، والقرطبي، 15: 52.
(127) انظر: القرطبي، 15: 52.

بل إن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: إنه لم يستقـمْ له إلا وزن بيت واحد هو:

تفـاءل بمـا تهـوى يكن، فلقلّما يـقـال لشيء كـان إلا تحـقـق

ثم قالت: ولم يقل تحقّقاً: لئلا يعربه فيصير شعراً[128].

وفي أحيان كثيرة كان يكتفي بشطر البيت فقط، كتمثله بالشطر الأول من بيت (لبيد) المشهور:

ألا كـل شيء ما خـلا الله باطـل وكـل نعيم لا محـالـة زائـل[129]

وثبت أنه ﷺ تمثل بالبيت الواحد مما صح وزنه من الرجز، كتمثله ببيت أمية بن أبي الصلت:

ان تـغـفـر الـلهـم جمـا وأي عـبـد لـك لا ألمـا

وإنما صح له ذلك في الرجز خاصة، لأن الشطرين منه كالشطر الواحد وزناً وتقفية[130].

وهكذا يظهر لنا أن النبي ﷺ كما منع من إنشاء الشعر، منع أيضاً من إنشاده، إذ لو استقام له وزن بيت واحد، لاستمرَّ في الإنشاد حتى يكون شاعراً، ولو كان شاعراً، لذهب مذاهب العرب، ونافس فيها، ولو تهيأ له ذلك، لأدى به حتماً إلى الانصراف عن الدعوة، ومن هنا تظهر لنا حكمة الله سبحانه وتعالى في إبعاد نبيه عن الشعر لأنه يعلم أنه لو أقام وزن بيت، لتصدع له الأساس الاجتماعي العظيم، الذي جاء به القرآن، ولذا أبعده عن الشعر: إنشاء، وإنشاداً، وتصدى لرد شبهة الشعر عن القرآن وما يحتمل الشك[131].

ونختم هذا المبحث بما أثارته الآية الكريمة من آراء حول موقف القرآن من

---

(128) انظر: روح المعاني، 23: 49.

(129) السابق.

(130) انظر تاريخ آداب العرب، 2: 307-309.

(131) انظر السابق، 2: 309-311، والتحرير والتنوير، 23: 64.

الشعر: سلباً وإيجاباً، فهل يفهم منها أن القرآن نقّص من قدر الشعر، وحط من شأنه؟

يقول ابن العربي: (هذه الآية ليست من عيب الشعر، كما لم يكن قوله تعالى: ﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك**﴾ من عيب الخط، فلما لم تكن الآية من عيب الخط، كذلك لا يكون نفي النظم عن النبي ﷺ من عيب الشعر)[132].

وذلك صحيح، لأن كلا الجانبين ـ الأمية، ونفي الشعر عنه ـ من تمام معجزاته ﷺ، فهما من خصوصياته، وقد روي أن المأمون قال لأبي علي المنقري: بلغني أنك أمي، وأنك لا تقيم الشعر، وأنك تلحن، فقال: يا أمير المؤمنين، أما اللحن: فربما سبق لساني منه بشيء وأما الأمية وكسر الشعر: فقد كان رسول الله ﷺ لا يكتب ولا يقيم الشعر، فقال له المأمون: سألتك عن ثلاثة عيوب فيك، فزدتني رابعاً، وهو الجهل، يا جاهل، إن ذلك كان للنبي ﷺ فضيلة، وفيك وفي أمثالك نقيصة[133].

وقد منع النبي ذلك لنفي الظنة عنه، لو كان كاتباً، أو شاعراً، لا لعيب في الكتابة، أو الشعر، وهو أقرب إلى الصواب، والمنطق، غير أن البعض رأى في الآية ما يدل على الغضاضة من قدر الشعر، فقد سئل مالك (ر) مثلاً، عن إنشاد الشعر، فقال: لا تكثر منه، فمن عيبه أن الله تعالى يقول: ﴿**وما علمناه الشعر وما ينبغي له**﴾[134] فقد وقف من الشعر موقف الحذر، بسبب هذه الآية، كما روي عن (لبيد) ـ الشاعر ـ أنه قال ـ لما سئل عن الشعر ـ: ما قلت شعراً منذ سمعت الله يقول: ﴿**ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه**﴾[135]، فظاهر كلامه أنه ترك الشعر غضاضة منه لما سمع القرآن.

---

(132) أحكام القرآن، 4: 1610.

(133) انظر: القرطبي، 15: 54.

(134) أحكام القرآن، 4: 1610.

(135) السابق.

وعلى رأي من يعلل نفي الشعر عن القرآن، بما في الشعر من التمثيل والمبالغة، تبدو دلالة الآية واضحة على الغض منه، بدليل أنه ﷺ لم يعط طبيعة شعرية، اعتناء شأنه، ورفعاً لقدره عما في الشعر من مناقص، وتبعيداً له من أن يكون فيه مبدأ لما يخل بمنصبه الرفيع[136].

وعلى هذا نسلم بأن الآية تدل على الغض من الشعر، ولكن في جانب النبوة فقط، لما يتسم به الشعر من المناقص التي تتنافى ومقام النبوة، وذلك تعليل منطقي، وهو أقرب ـ في رأيي ـ من تعليله بتطرق التهمة عند كثير من الناس، في أن ما جاء به من قبل نفسه، وأنه من تلك القوة الشعرية، لأن هذه التهمة تنتفي بالإعجاز الباهر الذي لجمهم عن المعارضة وهي في موقف المتحدي، ولم يبق بعدها إلا المكابرة، والعناد، ومحاولة التقليل من شأنه ﷺ، بإيهام الضعفاء، والعامة، أنه شاعر، وأن ما أتى به لا يخلو من مناقص الشعر المعهودة عندهم، وفيها ما يخل بالمروءة، وكمال الرجولة، ولو كانت علة منعه من الشعر ما ذكر، يمنع أيضاً من النثر، لأنه بلغ في مراتبه الدرجة العليا من الفصاحة، والبلاغة، وذلك مدعاة إلى تطرق التهمة بشكل أقوى من قول الشعر، وما لم يمنع من النثر، علم أن العلة في منعه من الشعر ما فيه من مناقص[137].

وبناء على ما سبق، يكون مفهوم الآية واضحاً في دلالته على الحط من قدر الشعر في مقام النبوة، أما في غيره، فالشعر مسموح به، وليس في الآية ما يدل على منعه، ولا ما يشير إلى ذلك، وسوف تتضح أمامنا جوانب هذه القضية بشكل أكثر تفصيلاً ووضوحاً، في المبحث التالي إن شاء الله.

ثالثاً: لفظ الشعراء:

ذكر لفظ الشعراء في القرآن الكريم مرة واحدة، في سورة (الشعراء)، في قوله تعالى: ﴿**والشعراء يتبعهم الغاوون**﴾[138].

---

(136) انظر: روح المعاني، 23: 47، 19: 146.

(137) السابق، 23: 47.

(138) الآية: 224 من سورة الشعراء.

وحتى يتضح لنا المعنى، فنفهم مناسبة ذكر (الشعراء) في هذه السورة، نتتبع مجرى الأحداث من أولها:

افتتح الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذه السورة بما يزيل الحزن عن قلب الرسول ﷺ، ويسليه عما لقيه من المشركين، من الصد، والإنكار لدعوته، وذلك بذكر الدلائل العقلية على عتو قومه، واستكبارهم، كي لا يهتم لعدم إيمانهم، وقد كان ﷺ حريصاً على ذلك إلى الحد الذي يؤلمه، ويؤرقه، بدليل خطاب الله له، في قوله: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾[139].

وزيادة في تثبيته، ورفع الشقة عنه، أردف تلك الدلائل بأخبار بعض الأنبياء السابقين، وما لاقوه من أقوامهم من عنت، وعناد وما أنزل الله بهؤلاء المتعنتين من أشد صنوف العذاب، جزاء كفرهم وتكذيبهم، فذكر في هذا المعنى سبع قصص متوالية، لسبعة أنبياء، تعرضوا من أقوامهم لمثل ما تعرض له الرسول ﷺ من قومه، وكان النصر حليفهم، جميعاً، لأنهم كانوا على الحق، وفي ذلك جبر لخاطر الرسول ﷺ، لأنه على الحق، أيضاً، والقصص هي: ـ

1 ـ قصة موسى مع فرعون[140].
2 ـ قصة إبراهيم مع أبيه وقومه[141].
3 ـ قصة نوح مع ابنه وقومه[142].
4 ـ قصة هود مع قوم عاد[143].
5 ـ قصة صالح مع قوم ثمود[144].
6 ـ قصة لوط مع قومه[145].

---

(139) انظر: الآيات: 3 من سورة الشعراء.
(140) انظر: الآيات: 10-68 من سورة الشعراء.
(141) انظر: الآيات: 69-104 من سورة الشعراء.
(142) انظر: الآيات: 105-122 من سورة الشعراء.
(143) انظر: الآيات: 123-140 من سورة الشعراء.
(144) انظر: الآيات: 141-159 من سورة الشعراء.
(145) انظر: الآيات: 160-175 من سورة الشعراء.

7 ـ قصة شعيب مع أصحاب الأيكة[146].

وذيل كل قصة منها بما يطمئن رسوله ﷺ، ويدفعه إلى المضي قدماً في طريق دعوته، وهو قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾ (الشعراء 191).

ثم يعزز ما سبق، بذكر الدلائل على نبوته ﷺ، مؤكداً أن القرآن من عنده ـ تعالى ـ لما فيه مزاعم المشركين بكونه مما تنزلت به الشياطين على محمد ﷺ، كما تنزلت بالوحي على الكهان، آمراً نبيه بالجهر بدعوته، بدءاً بأهل بيته، وعشيرته، معلماً له كيف يتعامل مع المشركين، ويرد عليهم[147].

ولما كان المشركون يبثون بين العامة فكرة التشابه بين النبي والكاهن أحياناً، وأحياناً أخرى فكرة التشابه بينه وبين الشاعر، عن طريق تشبيههم ما ينزل على محمد ﷺ بما ينزل على الكهان، أو ما يأتي به الشعراء، لاعتقادهم أن للكهان كما للشعراء اتصالاً بالجن، ولهم معهم مواقف خاصة يستلهمون منها الكهانة والشعر، ولهذا دأبوا على وصفه ﷺ بالكاهن مرة، وبالشاعر مرة أخرى، وفي كلتا الحالتين لا يخرج ما يأتي به عن فعل الشياطين، تنفيراً من القرآن، وتشكيكاً في إعجازه ـ لما كان الأمر كذلك ـ نزل القرآن الكريم بتوضيح الموقف كما يلي:

أولاً: الفرق بين النبي والكاهن:

بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ الفرق بين النبي والكاهن بقوله: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين، تنزل على كل أفاك أثيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾[148] وهذه الآية متممة في معناها لقوله تعالى: ﴿وما تنزلت به الشياطين، وما ينبغي لهم، وما يستطيعون، إنهم عن السمع لمعزولون﴾ الشعراء

---

(146) انظر: الآيات: 176-191 من سورة الشعراء.

(147) انظر: الآيات: 192-220 من سورة الشعراء.

(148) الآيات: 221-222 من سورة الشعراء.

210 ـ 212، فينسون المعنى: إن ادعاءكم بأن القرآن تنزلت به الشياطين على محمد ﷺ باطل، لأن صفة من تتنزل عليه الشياطين: أنه أفاك أثيم، وأنتم تقرون أن محمداً ليس كذلك.

وقد صدر الجملة الأولى: (هل أنبئكم) بأداة الاستفهام (هل) ليدل على أن المستفهم عنه مما يسوءهم ذكره، لذلك يحتاج فيه إلى إذنهم بكشفه، ولما كان هذا الاستفهام صورياً، جاء كناية عن كون الخبر مما يستأذن في الاخبارية عادة، دون ترقب جواب المستفهم، أتبعه بالإفضاء بما استفهم قبل الإذن من السامع[149].

ثانياً: الفرق بين النبي والشاعر:

ثم أعقبه بيان الفرق بينه، وبين الشاعر، بقوله: ﴿**والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون**﴾[150]، وللصلة الوثيقة بين الكهانة، والشعر، في خيال المشركين، ناسب أن يعطف جملة: (والشعراء يتبعهم الغاوون) على جملة: (تنزل على كل أفاك أثيم)، كما عطف نظيرتيهما في مجال نفي الشعر والكهانة عنه ﷺ في قوله: ﴿**وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون**﴾[151].

وقد اقتصر مضمون الآية: (والشعراء يتبعهم الغاوون) على نفي الشعر عن القرآن ضرورة بانتفاء الشاعرية عن الرسول ﷺ، دون إشارة إلى نفي أنه تنزيل من الشياطين، كما جاء في ذكر الكهانة وذلك لمغايرة حال الشعراء، لحال الكهان في الواقع، لأن الكهان يزعمون أنهم يستطيعون الغيب عن طريق الشياطين، وذلك مشهور عنهم، بخلاف الشعراء.

كما أشارت الآية إلى تحقير الشعراء كناية، لا تصريحاً، يفهم ذلك من وصف أتباعهم بالغاوين ومن كان تابعه غاو، فهو غاو لا شك، وأفادت

---

(149) انظر: التحرير والتنوير 19: 204-205.

(150) الآيات: 224-226 من سورة الشعراء.

(151) انظر: التحرير والتنوير، 19: 207.

ـ ضمنياً ـ أن محمداً ﷺ بعيد عن هذا الوصف المشين، لأن أتباعه من خيرة قومهم، وليسوا بالغاوين، ويترتب على هذا أن محمداً ﷺ ليس بشاعر، وأن ما جاء به حق وصدق، وليس بشعر، فانتفى بذلك زعمهم: أن القرآن شعر، وثبت له الإعجاز.

ثم أكد غوايتهم، بقوله: ﴿ألم تر.....﴾، حيث صدر الجملة، أولاً، بالاستفهام التقريري، القاضي بإثبات الغواية عليهم حقيقة، وتلاه، ثانياً، باستعمال فعل الرؤية، ليكون الخطاب عاماً لكل من تأتي منه الرؤية، وفيه إشارة إلى أن حالهم في الغواية من الظهور بحيث لا يخفى على أحد[152].

والغاوون: الضالون، وقد فسر هذا الضلال بأمرين:

أولهما: (أنهم في كل واد يهيمون)، والوادي: المنخفض بين عدوتين، والهيام: الحيرة والتردد، وفي العبارة صورة بيانية بديعة، تكشف عن مقدار ترديهم في الضلالة، حيث شبه حالهم في ترددهم بين فنون القول المختلفة، من مدح، وهجاء، ونسيب، وغيرها من أغراض الشعر المعروفة، وعدم قصدهم الحق، ولا قولهم الصدق، وفي هذه الأغراض، إذ تراهم يتبعون أهواءهم، فيمدحون من لا يستحق المدح، لأجل العطاء، ويذمون الصالحين لغرض التشهير بهم، مع تسليمهم في قرارة أنفسهم أنهم على الباطل، ويفضحون الحرائر... الخ، بحال الإبل الهائمة، المترددة بين أودية كثيرة، حيرى، لا تستقر في واد، والنكتة في التعبير بالوادي هنا: هو الإشارة إلى اسفافهم في القول، وتتبعهم عورات الناس، وإظهار عيوبهم، وذلك لأن نبت الربى أجود من نبت الأودية، والمعروف عند العرب أن الإبل لا تلجأ إلى الأودية إلا إذا أقحلت الربى[153]، ووجه الشبه واضح، وهو الحيرة والتردد بين مواطن الرذيلة، وترك مواطن الفضيلة، وذلك لفقدان الرشد.

وقد برأت الآية الكريمة الرسول ﷺ، وأتباعه من كل هذه الشوائب، لأنهم

---

(152) انظر: روح المعاني، 19: 146.

(153) انظر: التحرير والتنوير، 19: 209.

لم يعرف عنهم شيء منها.

وثانيهما: (أنهم يقولون ما لا يفعلون)، وذلك كناية عن الكذب، تلك الصفة المذمومة عند العرب، فهي من علامات الغواة عندهم، والكذب: صفة لاصقة بالشعراء، مشهورة عنهم، (فإنهم يرغبون في الجود، ويرغبون عنه، وينفرون من البخل، ويصرون عليه، ويقدحون في الناس بأدنى شيء صدر من واحد من أسلافهم، ثم أنهم لا يرتكبون إلا الفواحش، وذلك يدل على الغواية، والضلالة)[154]، والمعروف عنهم أنهم يقولون ما لا يعتقدون، وما يخالف الواقع، في كثير من الأحيان، رغبة أو رهباً، فيموهون الحقائق، ويزينون الباطل، ولا يخفى ما في مثل هذه التصرفات من البعد عن الصدق، والاقتراب من الكذب وهي صفات منفرة، تقدح في سيرة الرجل العاقل، وتشينه، والعرب كانوا يذمون المتصف بها، كما كانوا يتمادحون بالصدق، والشهامة، وغيرها من الصفات الحسنة، ويرونها من تمام كمال شخصية المرء المعتبرة عندهم.

والنبي ﷺ كان على خلاف هذه الأوصاف الذميمة، وما شابهها، إذ كان مشهوراً عند العرب جميعاً بمكارم الأخلاق، بل يعتبرونه قدوة لهم فيها، قبل البعثة، بعدها حتى لقبوه بالصادق، والأمين، وكذلك اشتهر أصحابه بينهم بأنهم من خيرة العرب: محاسن صفات، وابتعاداً عن الرذائل.

وبهذه الحجج العقلية، الباهرة، ينفي الله ـ سبحانه ـ صفة الشاعرية عند نبيه ﷺ لتنتفي عن القرآن شائبة الشعر التي ألحقوها به.

هذا، ويفهم من الآيات، التي نحن بصدد الحديث عنها، أن الشعر، عموماً منظور إليه في الإسلام بعين التحقير، والإزدراء، ولما كان ذلك مخالفاً للحقيقة، لما في الشعر من الفوائد الكثيرة، التي يحتاجها المجتمع، ولا سيما تلك التي تتعلق بالجوانب الأخلاقية، والتربوية، أعقبها بما يجلي الحقيقة، ويزيل الغموض، بأن استثنى أنواعاً من الشعر، وهي التي تفيد المجتمع، وتعين على إظهار الحق، وإنارة السبيل، لصدورها عن شعراء ملتزمين أخلاقياً، واجتماعياً،

(154) انظر: الفخر الرازي 24: 75.

وصفهم بقوله: ﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذكروا الله كثيراً، وانتصروا من بعد ما ظلموا**﴾[155].

فقد استثنت الآية من عموم الشعراء، من تشملهم الأوصاف الأربعة التالية: ـ

1 ـ الإيمان: وهو قوله: (إلا الذين آمنوا) وهم الشعراء الذين دخلوا في الإسلام بعد الغواية.

2 ـ العمل الصالح: وهو قوله: (وعملوا الصالحات) وهم الشعراء الذين يتبعون سبل الخير، ويترفقون بالمجتمع، ويبتعدون عما يشينهم.

3 ـ الالتزام الخلقي والاجتماعي: وهو قوله: (وذكروا الله كثيراً) أي: كان إقبالهم على القرآن، والإصلاح الاجتماعي، أكثر من إقبالهم على الشعر.

4 ـ عدم مجاراة المشركين في غوايتهم، إلا على سبيل الانتصار لكرامتهم، ودينهم، وهو قوله: (وانتصروا من بعد ما ظلموا) وهم الشعراء الذين أسلموا، وقالوا الشعر في هجاء المشركين انتصاراً لكرامتهم، ودينهم، مثل الذين أسلموا، وهاجروا إلى الحبشة، فقد قالوا شعراً كثيراً في ذم المشركين[156].

فمثل هذه الطائفة من الشعراء لا تنطبق عليهم تلك الصفات الذميمة، وبالتالي لا حرج في قولهم الشعر، ما داموا سائرين في الطريق الذي رسمه الإسلام، ومن هذا يفهم أن المذمومين من الشعراء، هم شعراء المشركين، الذين شغلهم الشعر عن الانصات للقرآن الكريم، ومن سار على دربهم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأن المذموم من الشعر هو الذي يبتعد عن الحق، والصدق، ويجافي الذوق السليم، ويهدر كرامات المجتمع، ويحدث تصدعاً في أركانه، بما يحمله من زيف، وكذب، وما جاء على شاكلته فيما بعد.

ومن مجمل الآيات السابقة ـ من قوله تعالى: (والشعراء يتبعهم الغاوون)

---

(155) انظر الآية: 227 من سورة الشعراء.

(156) انظر: التحرير والتنوير 19: 211 والفخر الرازي، 24: 176.

إلى قوله تعالى: (وانتصروا من بعد ما ظلموا) ـ يمكننا أن نتبين موقف القرآن من الشعر، ذلك أنه لا حذر على الشعر، من حيث هو شعر، إذ القرآن لم يتعرض له، لا بالقبول، ولا بالرد وإنما العبرة بما يحمله من مضامين، وهذا ما أكد عليه القرآن، سلباً، وإيجاباً، فإذا كانت هذه المضامين مما يخدم الحق، والعدل، فذلك مسموح به، بل محثوث عليه، وإن كانت في مجال نصرة الباطل، وهدم كيان المجتمع، فهو الشعر المذموم، الذي ينبغي على أُوْلِي الأمر التصدي له، ومحاربته.

وفي المعنى نفسه، تضيء الآيات ـ المشار إليها ـ زاوية مهمة في طريق الحث على قول الشعر، عند الحاجة إليه، في الميادين النافعة، قد تخفى على الكثيرين، أشار إليها ابن عاشور، بقوله: (فانفتح بالآية للشعر باب قبول، وباب مدح، فحق على أهل النظر ضبط الأحوال التي تأوي إلى جانب قبوله، أو إلى جانب مدحه، والتي تأوي إلى جانب رفضه، وقد أومأ إلى الحالة الممدوحة، بقوله: (وانتصروا من بعد ما ظلموا)، وإلى الحالة المأذونة، بقوله: (وعملوا الصالحات)[157].

ومعنى الحالة الممدوحة: المحثوث عليها، التي يلام صاحبها على تركها، كالانتصار للكرامة، وعدم الرضا بالذل والهوان، والرد على المعتدي بسلاحه، تمشياً مع قوله تعالى: ﴿**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه**﴾[158] فالسكوت في مثل هذه الحالات مذموم، ولا يخفى ما تحمله الآية من التشجيع على قول الشعر، في المواقف التي تستدعي ذلك وفيها إشارة إلى عدل الإسلام، وسماحته، وحبه للشخصية القوية، وحثه على بناء الإنسان الكامل، فالمؤمن القويُّ أحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

ومعنى الحالة المأذونة: رفع الحرج في الفعل أو الترك. وعلى هذا المنهج سار الرسول ﷺ، فقد كان يستشهد بالشعر ويثيب عليه، ويشجع على قوله، في

---

(157) التحرير والتنوير، 19: 211.

(158) الآية: 194 من سورة البقرة.

حدود الحالة الممدوحة، بل أنه ﷺ ذهب إلى أبعد من ذلك، في نطاق الحالة المأذونة، فاستمع إلى قصيدة كعب بن زهير وفيها الكثير من التشبيهات، والاستعارات البديعة، التي تخاطب العواطف، من مثل: تشبيه ريقها بالراح، وصوتها بصوت الظبي، ووصف قدها، ونشر العديد من محاسنها والنبي ﷺ يسمع، ولا ينكر منها شيئاً، لأن الشاعر لم يخرج عن الطريق السوي، وعلى هذا قال ابن العربي: (أما الاستعارات والتشبيهات فمأذون فيها، وإن استغرقت الحد وتجاوزت المعتاد)[159]، ولو كان في ذلك موضع لشبهة لما استمع الرسول ﷺ، إلى ما استمع إليه، من قصيدة كعب، ولنا في رسول الله ﷺ قدوة حسنة، وهل للتليد موضع أرفع من حكام النبوة؟.

وفي حدود ما رسمه القرآن، وطبقه الرسول ﷺ عملياً في حياته، من خلال تعامله مع الشعراء، سلباً وإيجاباً، كان الصحابة، والتابعون، يقولون الشعر، ويستمعون إليه، ويستشهدون به، ويشجعون على قوله، ويروحون به على أنفسهم، والأمثلة على ذلك كثيرة، ثبت منها ما أورده القرطبي نقلاً عن أبي عمرو، إذ يقول (ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم، ولا من أُولي النهي، وليس أحد من كبار الصحابة، وأهل العلم، وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر، أو تمثل به، أو سمعه فرضيه، ما كان حكمة، أو مباحاً، ولم يكن فيه قمش ولا خنا، ولا لمسلم أذى)[160].

هذا، وقد أشكل ما أورده أبو سعيد الخدري (ر) من قوله: (بينما نحن نسير مع الرسول ﷺ، إذ عرض شاعر ينشد، فقال النبي ﷺ: (لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً، خير له من أن يمتلىء شعراً)[161].

وللعلماء فيه تخريجات مقبولة عقلاً، تنفي الشك، وتقيم الحجة، منها: ـ

---

(159) أحكام القرآن، 13: 1446.
(160) انظر: القرطبي، 13: 147.
(161) انظر: روح المعاني، 19: 150.

1 ـ أن الشافعي (ر) حمله على الشعر المشتمل على الفحش[162]، ولا تخفى وجاهة هذا الرأي، وعليه لا يستبعد أن يكون الشاعر الذي عرض للرسول ﷺ قد نطق فحشاً، ولذا علق عليه بما سبق ذكره، لأن سكوته في هذه الحالة، يعتبر إقراراً للشاعر على بذاءته، وذلك مخالف لمنهج الإسلام في إرساء قواعد بناء الشخصية المثالية، قولاً، وسلوكاً، بل أن الدلائل تشير إلى صحة هذا الافتراض، فالرسول ﷺ سمع أشعاراً كثيرة، مختلفة الأغراض، مما يتمشى مع روح الإسلام، فاستحسنها، وأثاب على بعضها، ومنها ما أثار إعجابه، فصدرت عنه ردود فعل مشجعة لأصحابها على الاستمرار في الإنشاد، ولم يتكرر منها شيء، فما باله يواجه هذا الشاعر بما واجهه به، لو كان شعره في الاتجاه الصحيح.

2 ـ أن عائشة (ر) بلغها أن أبا هريرة يروي عن الرسول ﷺ الحديث السابق، فقالت: رحم الله أبا هريرة، إنما قال رسول الله: (لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً، خيرٌ له من أن يمتلىء شعراً هجيت به[163]، وقد استبعد ذلك الألوسي بقوله معلقاً على تعقيب عائشة على أبي هريرة: (ولا يخفى أن يبعد الحمل المذكور ـ هو توفية الحديث بعبارة: (هجيت به) ـ التعبير: (بيمتلىء)، فإن الكثير، والقليل، فما فيه فحسن، أو هجو لسيد الخلق ﷺ سواء)[164] ومفهوم كلامه أنه يعترض على زيادة عائشة (ر)، لأنه رأى فيها ما يناقض التعبير (بيمتلىء) وعلى هذا يمكننا أن نقول: انه لا يخفى أيضاً ما توحي به عبارة: (هجيت به) بنسبته إلى نفسه ﷺ، من أن ما هجي به غيره مباح، وذلك غير صحيح.

وأرى أن تلك الاحتمالات تفي بالمقصود الظاهر من الحديث، الذي يتوافق مع الآية الكريمة (والشعراء يتبعهم الغاوون)، فكل شعر يتعرض للدعوة الإسلامية، وصاحبها، أو للمسلمين بسوء مرفوض، يستوي في ذلك القليل

(162) السابق.
(163) السابق.
(164) السابق.

والكثير، وما هجي به ﷺ، وما هجي به غيره من المسلمين والاحتمال الأقرب إلى الصواب ـ عندي ـ في تخريج التعبير (بالامتلاء)، والتعبير (بهجيت به) موضع الإشكال هذا، هو أن التعبير (بالامتلاء) كناية عن الحرص الشديد على السير في طريق معاداة الدعوة الإسلامية، وليس المقصود منه القلة، أو الكثرة لذاتها، ولا يبعد ـ على هذا ـ أن يكون الرسول ﷺ قد لمس في شعر الشاعر، الذي لقيه، حرصاً على النيل من الدعوة الإسلامية، فابتدره بالصد، والتنبيه على خبثه.

أما التعبير (بهجيت به) ـ إن صح ـ فالمراد بالضمير: الإسلام، وليس شخص الرسول كفرد من أفراد المجتمع، لأن سهام المشركين كانت موجهة للرسول ﷺ باعتباره القدوة والقائد الذي تتمثل فيه الصورة المتكاملة للمسلم الحقيقي، فهجاؤه، إنما هو في معناه الصحيح، هجاء للإسلام كمبدأ، وعقيدة، وهجاء المسلمين بعامة، لارتباطهم برابطة الإسلام، وليس هجاء لمحمد بن عبد الله ﷺ في حد ذاته.

3 ـ إنَّ المراد (بالامتلاء) في الحديث، غلبة الشعر على قلب المرء، بحيث يلهيه عما عداه، من الاشتغال بالقرآن، والعلوم الأخرى وعلى هذا فالمذموم من الشعر، الإكثار المفرط منه، والمغالات في حبه، وتقديمه على غيره من أنواع الكلام الأخرى، خوف الافتتان به إلى الحد الذي يضر بصاحبه، فيلهيه عن المجالات النافعة من ناحية، ويزري به، لخروجه عن مألوف العباد، من ناحية أخرى، وفي ذلك دلالة على حرص الإسلام على الاعتناء بشخصية المسلم، وتكاملها من جميع الجوانب، وهو تخريج صائب، يقبله العقل، والمنطق السليم.

وليس في الحديث إشارة إلى ذم إنشاء الشعر، أو إنشاده، لحاجة شرعية، أو مصلحة اجتماعية، ولا عبرة برأي من يرى ذلك، فالأخبار الصحيحة الدالة على حل إنشائه، وإنشاده، أكثر من أن تحصى، وأبعد من أن يتطرق إليها الشك، كما لا يخفى[165].

---

(165) السابق. 19: 152.

وقد ختم الله ـ سبحانه وتعالى ـ الآية التي استثنى فيها الشعراء المسموح لهم بقول الشعر، بالتهديد الشديد للظالمين، الذين حاولوا النيل من الرسول ﷺ، وأصحابه، بأفعالهم، وأقوالهم، ولا سيما أشعارهم، إذ أن مفهوم الظلم هنا، يقتضي العموم، في مسمى الظلم الشامل: للفعل، والقول، والسلوك، وغيرها مما يقع تحت مسؤولية العباد، فيما يخصهم ويخص سواهم، من الكفر، وارتكاب المعاصي، واغتصاب الحقوق، ومحاولة النيل من الآخرين، في كرامتهم، وأعراضهم، ونحوها معاً، يسمى ظلماً، وذلك لنعتهم باسم الموصول (الذين) الدال على العموم، في قوله تعالى: **﴿وسيعلم الذين ظلموا، أي منقلب ينقلبون﴾**[166].

وباختتام هذا المبحث، نأتي إلى خاتمة البحث:

الخاتمة

وبعد:

فنختتم هذا البحث الموجز حول الشاعر، والشعر في القرآن الكريم، بإثبات النتائج التي توصل إليها، في النقاط التالية:

1 ـ صعوبة تحديد مفهوم الشاعر، والشعر، تحديداً منطقياً، مقنناً، بسبب الذاتية الصرفة التي ينطلق منها هذا المفهوم، إذ أن الشعر وليد عواطف الشاعر، وأفكاره الخاصة، والشاعر نفسه وليد عوامل مختلفة، موروثة، ومكتسبة، تختلف من جيل إلى آخر، ومن أمة لأخرى.

2 ـ اتفاق النقاد على نقاط أساسية، يمكن عن طريقها تمييز الشاعر من غيره، والشعر من النثر.

3 ـ للشعر أهمية كبيرة عند جميع الأمم، ولا سيما عند العرب، لفوائده المتعددة للأفراد، والجماعات على حد سواء.

---

(166) الآية: 227 من سورة الشعراء.

4 ـ الآيات التي ورد فيها ذكر الشاعر، مفرداً كلها مكية، والملاحظ أن القرآن الكريم، لم يتخذ موقفاً محدداً من الشعر، بالقبول أو الرد، في هذه الآيات، وإنما اتجه إلى تفنيد مزاعم المشركين في الرسول ﷺ، والقرآن الكريم، على طريقة منهج القرآن المكي، في اتباع السبل التي تعتمد على العقل، والمنطق.

5 ـ تبدو الآية التي ورد فيها ذكر الشعر ـ على الرغم من كونها مكية ـ أكثر وضوحاً في دلالتها على اتخاذ موقف معين من الشعر، ولا سيما فيما يخص الرسول ﷺ، ومقام النبوة.

6 ـ اتخذ القرآن موقفاً محدداً من الشاعر، والشعر بعد استقرار الدعوة الإسلامية، وكان ذلك في آيات معدودة، كلها مدنية، هي قوله تعالى: **﴿والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾**.

7 ـ القرآن الكريم لم يحرم الشعر، من حيث هو شعر، وإنما فصل القول في خصائصه، فحرم الضار منها، وحاربه بقوة، وأيد النافع منها، وشجعه.

8 ـ سار الرسول ﷺ، والصحابة (ر) من بعده، على منهج القرآن الكريم، في موقفهم من الشعر، سلباً، وإيجاباً. وأخيراً إن وُفِّقْتُ فذلك المبتغى، وإلا فعزائي أنني لم أدخر وسعاً.